ليالي الأرق
رواية
مَفيدة زروالي

ليالي الأرق

زروالي مفيدة

إهداء

إلى من لا يملكون في حياتهم سوى الألم

إلى أولئك الحالمين في صمت الذين تحققت كوابيسهم بدل أحلامهم فجعلتهم يعانون الأرق

إلى من لا يملكون ترف الحصول على النسيان فأصبحوا سجناء ذاكراتهم و ذكرياتهم

إليكم يا من اخترتم هذه الأسطر لتقرؤوها و تؤنسوا بها وحشة لياليكم

تأتي الصدمات بلا موعد سابق لتحشر نفسها فينا دون أن تحجز لذلك، تأتي كأمطار موسمية في يوم مشمس لا نحمل فيه مظلات، و لا نرتدي معاطف لتقينا من غضب أعاصيرها و برودة رياحها، تمطر علينا في مكان خال لا أشجار فيه ولا آمال لنحتمي بها لحين تنتهي عواصفها، فلا تترك لنا خيارا سوى الاستسلام لها حد الاعتياد عليها، وهكذا اعتدت على صدمة رحيلك، تلك الصدمة التي لم تكن كباقي الصدمات فكانت صدمة بموعد محدد بالمكان و الزمان، ورغم حجزها المسبق كانت صادمة، مخيبة ومؤلمة فاستقرت لباقي العمر غصة ألم في أعماق فؤادي وكانت عميقة وقوية، قوية جدا لدرجة أنها أشفتني من جراح قديمة، لأشقى بجرح جديد هو رحيلك، فحقا الأشياء الجميلة لا تدوم، لهذا لم تدم صداقتنا لكنها رغم ذلك دامت في قلوبنا وذاكراتنا فأنت في قلبي جرح مستقر غيابك يشقيني ويتعب ذاكرتي والكتابة عنك أصبحت دائي ودوائي فتجعلني أبكي وأبتسم ، أسعد وأشقى، أتألم وأتأمل في آن

واحد فابتسم بوجع وأنا أكتب، فهل تدرين يا أمل بأن هناك أناسا يقرؤون بقلوبهم لا بعقولهم، ولهذا علي أن أفكر مليا قبل أن أكتب، ولكني لم أفعل ذلك، ولم أفكر للحظة كي أملي على نفسي ماذا تكتب، فهي من تملي علي ذلك، فأنا لا أكتب هذه الرواية بل هي من تكتبني بحبرك أنت، بحبر ألمك الأسود، وبعمق أحاديثك المشحونة بالخيبات والتعب فعلني بين كلماتها أجدك لتؤنسي وحدتي مجددا كلما استقر الأرق بين جفوني فجأة بذكراك، وأجد ذاتي أيضا بماضيها وحاضرها فتكون روايتي الأولى صندوقا جمعت فيه أسراري وأسرارك، خيباتي وآلامك، صمودك ومقاومتي، وفي الأخير وحدتك واجتماعنا، قُلتِ لي في إحدى ليالي الأرق التي جمعتنا أن أرواحنا هي التي تكتب حين يتعلق الأمر بنا، فأكثر الأشياء عمقا وواقعية هي التي نكتبها عن أنفسنا، فنكتبها بأرواحنا فلا أدرى من الروح بمعاناتها سوى الروح ذاتها، ولكن لم يتعلق الأمر بي هذه المرة فأنا لا أكتب عن نفسي فقط، فلماذا إذا تعبت روحي حتى قبل أن أبدأ، ليتك هنا لتجيبيني لماذا تعبت روحي، أهي أسماء ابنتاي أمل وندى التي تذكرني كلما سمعتها بأدق تفاصيل آخر حديث جمعنا هي ما يتعبني فتجعل كلماتك تتسلل إلى أعماق ذاكرتي لتبكيها شوقا إليك، أم أن المسؤولية التي وضعتها على عاتقي هي ما أتعبني فأنا لا أدري كيف تكتب الروايات وكيف يبدأ الروائيون بالكتابة فبداية كتابتي لواقعك كانت أصعب مما ظننت فلم أعرف بعد كيف أبدأ و أي مرحلة من عمر حكايتك هي المناسبة لتكون البداية لروايتي، ربما لو كنت هنا لقلت ببساطة «لا يهم كيف تبدئين المهم هو أن تبدئي»، ولأفعل إذا كما تنبأت أنك ستقولين، فأنا منذ رحيلك أصبحت أتنبأ بما ستقولينه في كل موقف أمر به لو كنت معي، والآن دعكي من كل هذا يا أمل فأنا أرغب أن أقول شيئا آخر أكثر أهمية، أرغب بإخبارك أن ذلك اليوم قد حان، حان بعد عام ونصف من آخر لقاء جمعنا، فاليوم تذكرت كل الأحاديث التي دارت بيننا بجملها وكلماتها، بابتساماتك ونظراتك، بخيباتك وآلامك، لا تظني أني قد نسيتك قبل اليوم فأنا لم أنساك يوما فأنت دائمة الحضور في صلاتي ودعائي وحتى في أحلامي وكوابيسي، لكن اليوم كان حضورك شامخا كغيابك، وكأن روحك كانت محنطة مدفونة في أعماقي كل تلك الفترة، واليوم استيقظ رفاتها ليتسلل إلى ذاكرتي ويطلق عِنانها نحو ماضيك، فأشعرني حضورك بمرح روحك المتعبة يسير في عروقي وبأحاديثك تدور في ذهني، فاليوم حين حظيت بِابْنتاي التوأم ورأيتهما لأول مرة رأيتك معهما وفيهما، فقد ذكرني انزعاج طفلتي أمل من الضوء بهروبك الدائم نحو الظلام، وذكرني استيقاظ طفلتي ندى طول الليل في أول ليلة لها في هذا العالم بحلمك بالنوم الذي كان رغم بساطته مستحيلا، والذي لم يتحقق سوى بأن يصبح نوما أبديا، فرحلتي من هذا العالم لتحققي حلمك ذاك، وسافرت أنا من ذلك البلد الذي كان عذابك فيه أكبر من حجم مساحته، سافرت من دون عودة كما رحلت أنت يومها، سافرت لأكون سعيدة من أجلك، بعيدة من أجلي، فنمت يومها لحظة حلقنا مع بعض من ذلك السجن ولكل منا وجهتها فليت وجهاتنا تلتقي مجددا بعيدا عن السجون لنحلق معا بآمالنا وأحلامنا متى رغبنا بذلك، فلو تعلمين كم اشتقت إليك وكم أرغب في هذه اللحظة بالجلوس معك والحديث لساعات دون أن نشعر بمرور الوقت، فقد كانت أحاديثنا حلوة رغم قسوتها،

مُشفية رغم إيلامها، فبها سعدنا وبها شقينا، بها اجتمعنا وبها افترقنا، تعمدتِ الرحيل بعدها حبا وحاجة له، و كم كان قاس يوم رحيلك، كان ولا يزال كذلك، لم أنسى يومها كيف فاضت مشاعر الألم بداخلي، وكيف فاضت دموعي كأمطار موسمية غزيرة لا تأبى التوقف، انفجر صراخي المكبوت يومها ليصم آذاني الصاغية لإحداهن وهي تقول: «ماتت مبتسمة»، فلما كل ذاك الشموخ، فشموخك ذاك زاد ألمي أضعاف، فلو تدرين كم كان صعبا علي ذلك اليوم، وكم من الصعب علي تذكره، وتذكر أنك من تحت أنقاض الألم رويت لي حكايتك لأنقذها من الموت وأجعل منها رواية، فأطلت روايتها، فاعذريني فأنا لم أكن منقذتك، ولم أكن هدية القدر لك، أما أنت فكنت هدية الألم لي، فالقدر لم يهديك سوى الألم الذي أهديتني إياه قبل رحيلك في شكل حكاية بفصول خريفية اصفرت فيها زهور ربيع طفولتك، وتساقطت فيها أمطار القسوة على حياتك فأخذتك أعاصير الماضي في دوامتها، ولم أستطع إنقاذك فاعذريني مرة أخرى فأنا أطلت إنقاذي حتى لحكايتك، اعذريني على انتظارك الذي طال وطال فأنا لم أتعمد جعلك تنتظرين فأنا أدري أن الانتظار بلا موعد صعب، اعذريني فأنا لم أكن سوى أنتظر تلك اللحظة التي تأتي بك إلي فجأة، وحقا كان انتظاري لها صعب، وها قد حانت تلك اللحظة أخيرا هذه الليلة، وأتت فجأة لتذكرني بأحاديثنا كأنها جرت البارحة، فأرويها كلها بين ليلة وضحاها، وكأن نفس الأحاديث جمعتنا مجددا في ليلة أرق سأقضيها معك ومن دونك، بغيابك وبحضورك، سأقضيها بأحاديثك وكلماتك، وبغياب صوتك ونظراتك، سأقضيها بوحدتك وأرقك في سجن ذاكرتي تؤنسني فيها ذكرياتك، ألم أخبرك يومها يا أمل بأننا لسنا غرباء، وبأن قلوبنا اجتمعت في مكان ما وسط ذكرياتها، لهذا أصبحت أنام منذ تلك الليلة، ليلة نومك الأبدي فأنا تخلصت ليلتها من ذكرياتي لأنك حقا أخذت معك حكايتي، فأخذت بذلك ألمي، ولهذا نمت ولم أعد أعاني أرق الذكريات، لكن الليلة عاد أرقي بذكرياتك أنت، فذكرني كيف عقدت قرانك مع الألم في ساحة ضيوفها الذكريات فليتك لم تفعلي، وليتك حظيت بدل ذلك بالنسيان، ولكنك لم تحظي به فذكرياتك جعلتك تصابين بمرض الذاكرة الفائقة، ولم تمتلكي يوما رفاهية شرب دواء النسيان، فلم يشفيك النسيان فأنت لم تحظي به، ولكن الموت شافاك، فمتي ولم يبقى منك سوى حكايتك، وأحاديث جمعتنا ليفرقنا الموت فيما بعد، ربما لو كنت هنا لقلت بابتسامة طفولية وبمرح تكسوه الخيبة والتعب «وهل عشت يوما قبل هذا لأموت»، لا لم تعيشي ولم تموتي طيلة سنوات حياتك أنت فقط تعذبت، وما أسوء أن تهبنا الحياة العذاب المستمر كقدر جاهز، وهكذا كان قدرك فلم تعطك الحياة فرصة للعيش، فعسى الموت يهبك هذه الفرصة فترزقين في ذلك العالم العادل برغد العيش والراحة الأبدية التي طالما حلمت بها

فسلاما يا أملا تلاشاه الألم ومحاه فأنساك أن له وجودا في عالمك

سلاما يا من نذرت عمرك للألم فنذر نفسه لكي ليكون لكي أنيسا ورفيقا حتى الموت

سلاما على روحك الشجاعة رغم تحطمها من شدة الصمد والمقاومة لم تستسلم سوى للموت بشموخ وأصالة

سلاما على قلبك الذي احتضر شوقا وألما، وعساه يحظى هناك بما اشتاق لملاقاته.

الفصل الأول:

السجن هو حيث تأسر الأحلام وتُعدم الأرواح قبل الأجساد فيحكم عليها بالغرق في ماضيها مدى الحياة بين الخراب والذكريات، وحيث تَسْجِنُ القلوب أحزانها، وتَحبس العيون دُموعها، ويَكبت الصُراخ نفسه، نبحث بين السجون عن أنفسنا لنحررها فنجد أن تلك السجون ما هي إلا منازلنا وعائلاتنا، والتعساء هم فقط من يُسجنون هنا وهناك، فتُسجن أرواحهم في سُجون المنازل وأجسادهم في السجون الحكومية وعقولهم في ذكرياتهم، وفي أحد تلك السجون المنسية حيث تُأسر الأجساد الشبه ميتة دون أن يعرف أحد إن كانت تلك الأجساد تحمل أرواحها أو إن كانت أرواحها حلقت هربا من سجن الحياة أو أنها ماتت تعبا وقهرا بينما كانت تحلق بين الذكريات، هنا حيث القضبان الحديدية هي الأبواب والزنزانات المظلمة الباردة والمنفردة هي الغرف، هنا تقبع بجسد متعب وبروح مرهقة من التحليق في الماضي، مُرتمية كقطعة أثاث قديمة هشة في قبو معتم، مُضاءٍ بخيوط قليلة تبعثها أشعة الشمس لتبعث بها تارة الأمل وتارة أخرى الألم، مرتخية كقطة متعبة مستلقية على الأرض بعيون لامعة تحمل بريقا من الأسى، غارقة في التفكير بعد أن أصابتها صعقات ألم متواصلة أوقعتها في بحر من الدموع الجافة فتبكي بلا دموع وتصرخ ألما بصراخ لا يسمعه سواها، فحقا يا لقسوة هذا العالم لا يعرف معنى الشفقة إذ يجعل من البعض فرائس للآخر فيأكل القوي الضعيف ويعيش على حساب موته كما لو أننا في غابة مليئة ببقايا العظام، وليت بقايا الإنسان هي عظام فقط وليست بقايا روح منشطرة، مقطعة، ومكسورة تحشر نفسها في الماضي وتتداخل فيه مع الذكريات، انه الماضي لم يخلق سوى لإيذائنا يستدعي فجأة ذكرياته ويأتي لتناول العشاء، عشاء وليمته المرء وحاضره فيلتهم الروح بشراهة ولا يترك سوى بعض البقايا ليأخذها بعد ذلك غصبا عنها في سهرة أرق وألم، و يا لقسوة الأرق إنه أقسى من الحياة بحد ذاتها فهو يعيق الأحلام فيعيق بذلك الآمال لهذا قالت ندى وأخيرا سأموت سينتهي أرقي للأبد وينتهي معه عذابي، ففضلت الموت على الأرق، ندى تلك القطعة الهشة يلامسها الماضي فتنقشع، فتاة وضعتها الحياة نصب عينيها فهدمت كل محطات عمرها، وكانت آخر محطة تقف عندها بقطار حزنها وراء تلك القضبان الحديدية تنتظر الإعدام لتنعدم من وجود أتعبها حد الهلاك، لتموت فتحظى بالخلاص، الخلاص من كونها إحدى ضحايا الحياة، المجتمع، والأسرة، وإحدى ضحايا نفسها كما قالت قبل أيام من تطبيق حكم الإعدام عليها، تقيم ندي في سجن النساء في زنزانة منفردة منذ أسبوعين لم ترى أحدا في هذه المدة سوى حارسات السجن ولم تحادث غير نفسها لتؤنس وحدتها، صوت خطوات قادم باتجاه زنزانتها هذه الليلة، ربما هو صوت الأمل بالنسبة لها وصوت الألم بالنسبة لغيرها من السجينات، انه صوت الموت أمل بالنسبة للبعض بالتخلص من قسوة الحياة وألم بالنسبة للبعض الآخر رغم قسوة الحياة، هذه الليلة وعلى غير العادة وقفت إحدى الحارسات على بعد خطوات من ندى المحشورة في ركن مظلم ودقت قضبان الزنزانة بعصا خشبية، وقالت بصوت عال «السجينة ندى لقد صدر الحكم

الخاص بقضيتك وقد حكم عليك بالإعدام وسيطبق حكم إعدامك بعد يومين من الآن»، وما إن أكملت الحارسة جملتها والتي هي عبارة عن صاعقة صدمة قد تصيب أي سجينة حتى وقفت ندى من مكانها مسرعة ومتلهفة نحو الباب نظرت من وراء القضبان إلى عينا الحارسة وقالت مبتسمة «أحقا سأموت بعد يومين هذا أجمل ما سمعته في حياتي وأخيرا سأنام، سأنام للأبد سينتهي أرقي وينتهي معه عذابي»، تعجبت الحارسة و قالت: «هل تعانين من الأرق، منذ متى يحدث معك هذا»، عادت ندى إلى مكانها ولم تُعر سؤال الحارسة أي اهتمام، فعادت الحارسة أدراجها وهي تفكر في ندى وتقول في نفسها «ما الذي جعل فتاة في الواحد والعشرين من عمرها فقط تستقبل خبر قرار إعدامها بسعادة ورضا، ما الذي جعلها تكتفي من الحياة إلى هذا الحد»، ولحظتها قطع حبل تفكيرها صوت يناديها «زينب، أنت هنا، متى عدت من سفرك»، توقفت زينب عن التفكير بندى وراحت تتبادل أطراف الحديث مع زميلتها في الحراسة الليلية «نجاة»، التي لم تلتقي بها منذ حوالي أسبوعين،

سألتها نجاة: «هل انتهت إجازتك بهذه السرعة أم أنك عدت قبل انتهائها»

زينب: «انتهت إجازتي وعدت اليوم إلى العمل »

نجاة:« أظنها انتهت بسرعة»

زينب: «وأنا أظنها أطالت انقضائها، أخبريني ماذا حدث في فترة غيابي»

نجاة:« في غيابك لم يتغير شيء، لكن الآن سيحدث بعض التغيير، سيجمعون أخطر السجينات في القسم B وسيضعونك الحارسة عليه، وستكونين الحارسة الوحيدة لكل القسم، لأن إحدى الحارسات في عطلة أمومة ولن تعود إلا بعد حوالي الأربعة أشهر، ويعني هذا أنك ستعملين لوحدك حتى تعود، لقد كنت في مكتب المشرفة نجلاء وعلمت بهذا الخبر من هناك، فقد قالوا أنك المناسبة للحراسة ضعف المدة المعتادة وعليهن استغلال ذلك، وعدم إحضار حارسة جديدة لتحل مكان الحارسة الغائبة لأن هذا يستدعي الكثير من الإجراءات، وأظنك تعلمين كم هم كسالى المشرفون على هذه الأمور، زينب لا تخبري أحدا بما قلته لك فإن علمت المشرفة بهذا سأعاقب »

زينب:« لا تخافي لن أخبر أحدا، ولكني كنت هناك ولم تخبرني المشرفة بشيء، كما أنها أوكلتني بمهمة أخرى، وهي إخبار السجينات بقرارات المحكمة التي تخص قضاياهم، وقد انتهيت منها للتو، وكنت متجهة لمكتبها لأعيد الملفات إلى مكانها »

نجاة: «هل القرارات التي أعطوك إياها تخص السجينات المحكم عليهن بالمؤبد والإعدام»

زينب:« نعم، ولكن كيف عرفت ذلك »

نجاة : « لأنهن نفس السجينات اللاتي سينقلن إلى القسم B، فهم سينقلون أخطر السجينات و أخطرهن هن من حكم عليهن بالمؤبد والإعدام وربما أعطوك القرارات لتتعرفي على السجينات لأنك ستكونين حارستهن»، استغربت زينب لعدم انتباهها لهذا فهي في العادة لا يوكلون لها مهمات كهذه، فمهمتها الوحيدة هي الحراسة لست ساعات كل ليلة ثم تنوب نجاة بالحراسة لست ساعات المتبقية من الليل، قالت زينب مبتسمة :« حسنا علي الذهاب الآن، أشكرك على إخباري بما يحدث»، اتجهت زينب إلى مكتب المشرفة، دقت الباب وفتحته مستأذنة بالدخول، ابتسمت لها المشرفة وقالت« تفضلي واجلسي لنتحدث قليلا»، تقدمت زينب ووضعت ما كانت تحمله من أوراق فوق المكتب قائلة« لقد أكملت ما طلبته مني، قالت المشرفة وهي ترفع الملفات وتضعها في خزانة المكتب« جيد والآن علينا أن نتحدث قليلا بخصوص عملك، فقد اجتمعنا بهدف إعادة تعيين الحارسات، وهذا بسبب غياب إحدى الحارسات المفاجئ بسبب ولادتها المبكرة، وقد قررنا أن تحرسي بدوام كامل أي ضعف مدة حراستك في الماضي، وستكون لديك عمولة على الساعات الإضافية التي ستعملين بها، لكن قرارنا يحتاج لموافقتك، فهل أنت موافقة على هذا»

زينب: «حسنا سيدة نجلاء أنا موافقة »

المشرفة: « جيد، سنبدأ إذا بنقل السجينات إلى القسم B فهو أوسع الأقسام وأكثرها إضاءة، وسيكون مريحا لك أثناء الحراسة كونك ستقضين فيه معظم وقتك »

اجتمعت الحارسات بأمر من المشرفة نجلاء وبدأن في نقل السجينات واحدة تلو الأخرى إلى أن وصلنا إلى زنزانة ندى، فتحت إحدى الحارسات باب الزنزانة ونظرت إلى ندى قائلة « انهضي سننقلك إلى زنزانة أخرى»، وتقدمت باتجاهها مع حارسة أخرى، لم تبدي ندى أي رد فعل سوى تقديم يديها للحارسة لتكبيلها، وضعت الحارسة الأصفاد بيدي ندى وأمسكت بذراعها مخرجة إياها من زنزانتها المظلمة المضاءة بضوء خفيف يبعث من الرواق، سارت ندى بخطى مرتجفة وبطيئة مع الحارسة أما الحارسة الثانية فأغلقت باب الزنزانة ولحقت بعدها بزميلتها، أمسكت بذراع ندى الأخرى، وأسرعت في مشيتها وهي تصرخ غاضبة « تحركي بسرعة لدينا الكثير من العمل الليلة »، ثم نظرت إلى زميلتها وقالت منزعجة « هل كان من الضروري نقل السجينات، لماذا علينا نقلهن إلى قسم آخر والقيام بكل هذا العمل المتعب إن كن سينقلن جميعهن من هنا عن قريب»، ردت زميلتها «لأن القسم B إضاءته قوية للغاية وهذا سيناسب الحارسة زينب فقد سمعت مرة أنها تخاف الأماكن المظلمة»، قاطعتها الحارسة قائلة بغضب «هل تقصدين أن كل هذا من أجل راحة حارسة واحدة، ألسنا جميعا حارسات فلما نتعب نحن من أجل راحتها»، ردت زميلتها «لأنها ستعمل ضعف مدة عملنا نحن فهي ستحرص منذ الليلة بدوام كامل، وهذا أقل ما يمكن للمشرفة فعله من أجل راحتها في الحراسة»، وصلت الحارستان إلى

القسم B، وما إن دخلتا رواق القسم حتى ارتعش جسد ندى، وعادت خطوة إلى الوراء، وهي تغمض عينيها من شدة إضاءته، وتسمرت لبضع ثواني حتى شدتها الحارسات ظنا منهما، أنها تعجبت من شدة الإضاءة مقارنة بالإضاءة شبه المنعدمة في زنزانتها، بقيت ندى على حالها ولم تكمل سيرها فشد الحارستان لم يحركها سوى بضع خطوات ثم ما لبثت أن تسمرت في مكانها مجددا وهي تشد على عيناها المغمضتان بقوة، نظرت إليها الحارستان وصرخت إحداهما قائلة «افتحي عينيك وتحركي هل جننت أم أن خبر قرار إعدامك أتلف أعصابك»، وشدتها بقوة، فارتجفت خطوات ندى ووقعت أرضا على ركبتيها، وهي لا تزال مغمضة العينين، وبدأ صدرها يرتفع وينخفض بسرعة ودقات قلبها تتسارع، ظنت إحدى الحارسات أنها أصيبت بسكتة قلبية جراء سماعها خبر قرار إعدامها نظرا إلا أن هذا يحدث مع كثير من السجينات، فمنهن من تفقد أعصابها قبل إعدامها ومن هن من تفقد حياتها فركضت الحارسة باتجاه العيادة، وهي تصرخ «الطبيبة، نحتاج الطبيبة في القسم B إحدى السجينات أصيبت بسكتة قلبية»، أما الحارسة الأخرى فجلست على ركبتيها مقابلة وجهها لوجه ندى تطالبها أن تهدأ وتفتح عينيها.

على بعد أمتار من القسم B تجلس الحارسة زينب مع المشرفة نجلاء في مكتبها، تقلب زينب أوراق ملف كل سجينة فتخبرها المشرفة عن سبب ارتكاب كل واحدة منهن لجريمتها وعن تفاصيل ارتكابها وحين وصلت إلى ملف السجينة ندى وفتحته، قالت المشرفة «ذاك ملف السجينة الأكثر نحسا من بين السجينات»، ازداد فضول زينب لمعرفة حكاية ندى أو بالأحرى بمعرفة تفاصل جريمتها، وفي تلك الأثناء قطع حديث المشرفة صوت الحارسة قادم من خارج المكتب وهي تصرخ «أين الطبيبة، نحتاجها في القسم B إحدى السجينات أصيبت بسكتة قلبية»، وقفت نجلاء وزينب، وركضتا مسرعتان باتجاه القسم B، أما الحارسة فاستمرت في المناداة بحثا عن الطبيبة إلا أن أرشدتها إحدى الحارسات إلى مكان تواجدها، وصلت نجلاء وزينب إلى القسم B فوجدتا ندى في الرواق جاثية على ركبتيها مغمضة العينين بقوة، ونبضات قلبها تكاد تسمع من شدة تسارعها، صرخت المشرفة على الحارسة الجالسة بجانب ندى قائلة «ماذا حدث للسجينة، لا بد وأنكما تحدثتما عن طرق الإعدام أو شيء ما أخافها، ألم أقل مرارا ألا تتحدثن عن مواضيع تثير الرعب في نفوس السجينات»، وقفت الحارسة وأجابت المشرفة وهي تتلعثم «سيدتي، لقد كانت السجينة هادئة طول الوقت إلا أن دخلنا الرواق فتغيرت حالتها فما إن دخلنا حتى أغمضت عينيها بقوة وعادت إلى الخلف، فظننت أنها تعجبت من الإضاءة، وحين أمرتها أن تتحرك وقعت أرضا وتسارعت نبضات قلبها»، صرخت الحارسة زينب على الحارسة الأخرى قائلة «أطفئي الأضواء بسرعة، أطفئيها كلها»، توسعت عينا الحارسة ولم تفهم ما قالته زينب، فصرخت مجددا قائلة «أخبرتك أن تطفئي الأضواء ماذا تنتظرين»، نظرت الحارسة إلى المشرفة نجلاء فقالت المشرفة «افعلي ما قالته لكي زينب بسرعة»، أسرعت الحارسة بإطفاء الأضواء فأصبحت الإضاءة شبه منعدمة، تقدمت

زينب نحو ندى وجثت على ركبتيها وقالت « اهدئي وافتحي عينيك المكان لم يعد مضاء كما كان»، بدأت ندى تهدأ ونبضات قلبها تتباطأ، أرخت عيناها المشدودتان وفتحتهما شيئا فشيئا إلى أن أصبح وجه الحارسة زينب واضحا في نظرها، لم تفهم المشرفة نجلاء ولا الحارسة شيئا مما يحدث، وفي تلك الأثناء وصلت الطبيبة مع الحارسة الأخرى إلى الرواق تلهثان بسبب الركض، اتجهت الطبيبة مسرعة نحو ندى وهي تقول «لماذا الإضاءة خافتة هكذا، فلتشعل إحداكن الأضواء»،

قالت زينب «لا تشعلوا الأضواء»، ونظرت إلى الطبيبة وأكملت كلامها قائلة «لم تكن سكتة قلبية، كانت سكتة ضوئية»، ووقفت من مكانها، وقالت للمشرفة «سيدة نجلاء من الأفضل أن تطلبي من الحارستان أخذ السجينة إلى زنزانتها، فهذا سيجعل حالها أفضل»، المشرفة : «وماذا عن صحتها »

زينب : «ستكون بخير إن لم تعبث إحداهن بالأضواء»، نظرت المشرفة نجلاء إلى الحارستان وقالت «خذوا السجينة إلى زنزانتها واتركوا الإضاءة على حالها»،

تقدمت الحارستان نحو ندى وأوقفتاها من مكانها فسارت معهما بهدوء، ظلت زينب تتابع بنظراتها خطوات ندى فانتبهت لشدة نحافة جسمها ولارتعاش خطواتها إلا أن اختفت عن ناظرها، فالتفتت باتجاه المشرفة وقالت «هل يمكن أن نتحدث قليلا»، ردت المشرفة «بالطبع فلنعد إلى المكتب»، ثم نظرت المشرفة إلى الطبيبة وقالت «نعتذر على إزعاجك، بإمكانك العودة إلى عملك»، ردت الطبيبة «حسنا لا بأس، سأكون في العيادة إن احتجتموني»، وغادرت.

دخلت زينب ونجلاء المكتب، قالت نجلاء بعد جلوسها «ماذا حدث للسجينة، وكيف علمت أن إضاءة الرواق هي ما يخيفها فقد رأيت الكثير من الحالات المشابهة التي تصيب السجينات جراء الخوف من الإعدام لكن لم أرى مطلقا سجينة تخاف من الضوء»، ردت زينب: «قبل أن أخبرك بأي شيء أريد أن أعرف منك قصة هذه السجينة ولماذا قلت بأنها الأكثر نحسا، علي أن أعرف قصتها لأتأكد أن ما يدور في بالي صحيح»،

المشرفة: «بالطبع، سأخبرك بكل ما أعرفه، وسأبدأ أولا بالمعلومات التي ذكرت في ملفها»، وفتحت الملف «اسمها ندى وتبلغ من العمر واحدا وعشرين سنة ، لا تملك شهادة جامعية فهي لم تتحصل على البكالوريا، توفيت والدتها وهي في عمر العاشرة، ليس لديها إخوة أو أخوات ولو يتكفل أي أحد من أقاربها الغير معروفين بتعيين محام من أجلها ، لذلك قلت بأنها الأكثر نحسا، أما الجرم الذي ارتكبته فهو أكثر ما سيصدمك، فقد قتلت والدها وصديقه و الأسوء من ذلك أنها أحرقت جثتيهما لتخفي دليل ارتكابها للجريمة، وقد سجنت في السجن المركزي قبل تحويلها إلى هنا وفي تلك المدة عينت المحكمة محام ليتكفل بقضيتها، وأظنها قد عينته من أجل استكمال الإجراءات القانونية فحسب وليس من أجل الدفاع عنها فهو لن يستطيع ذلك لأنها مذنبة بكل الأحوال وقد زارها المحامي في السجن المركزي لأجل

التحدث معها حول ملابسات الجريمة ولكنها لم تقم بأي جهد للدفاع عن نفسها، وفي أول محاكمة لها قبل حوالي أسبوعين أصدرت المحكمة قرارا بإرسالها إلى هنا ويقضي القرار بأن توضع السجينة في زنزانة منفردة نظرا لخطورة الجرم الذي ارتكبته إلى غاية إصدار آخر قرارا فيما يخص قضيتها، و هي لم تدافع عن نفسها في يوم محاكمتها، ولم تنكر التهم الصادرة بحقها، وهذا ما جعل المحكمة تقر بأنها مذنبة من الدرجة الأولى، فأصدرت هذا الصباح قرارا بإعدامها شنقا، وقد كانت هادئة طيلة الأسبوعين الماضيين، فهي هنا منذ أسبوعين أي أنها نقلت إلى هنا في نفس اليوم الذي أخذت فيه إجازتك إلا أن حدث ما حدث معها اليوم، وأظن أن ما حدث معها كان بسبب خوفها بعد أن عرفت أنها ستعدم، لكن ما أثار حيرتي هو هدوءها المفاجئ بعد أن أطفأت الأضواء فأنا لم أكن أعرف أن هناك أناسا يخافون من الضوء»

زينب: «هي لا تخاف الضوء، أظن أن سطوعه القوي يذكرها بشيء ما، فهذا يحدث أن تذكرنا أشياء عادية وغير مخيفة بحادث ما أثار الرعب في نفوسنا لدرجة أن نشعر أننا نعيش الحادث مجددا، وقد كان مجرد توقع مني أن يكون الضوء الساطع للرواق هو سبب ما حدث معها، وهذا عندما سمعت الحارسة تقول أن السجينة كانت هادئة حتى لحظة دخولها الرواق ورؤيتها سطوع الأضواء، لم تخبريني بعد ما سبب ارتكابها للجريمتين، ولما سارعت المحكمة في إجراءات محاكمتها»

المشرفة: «لقد جعلها الضغط المطبق عليها في السجن المركزي تعترف بأن صديق والدها تحرش بها وحاول الاعتداء عليها بعد أن قامت بدفعه ليبتعد عنها، وهذا ما جعلها تقتله دفاعا عن نفسها بغمس سكين بالقرب من قلبه، أما سبب قتلها لوالدها هو أنه كان يسمع صراخها وهي تستجد به لينقذها من صديقه إلا أنه لم يعرها أي اهتمام وهذا ما دفعها لقتله هو الأخر، ولكن بطريقة أخرى فقد دفعته من على الشرفة ليقع أرضا ويلقى حتفه، وبعدها جرت جثته وأدخلته القبو وقامت بإحراق كلا الجثتين واعترافها هذا هو ما جعل الشرطة تشك في صحة كلامها وتكذب ادعاءها بأن والدها كان يسمع صراخها ولم يحاول إنقاذها، فبما أن والدها كان واقفا في الشرفة فهذا يعني أنه لم يسمع صراخها القادم من القبو لأن القبو بعيد عن الشرفة، كما كذبت الشرطة ادعاءها بأن صديق والدها لحقها إلى القبو ليعتدي عليها، وهذا لأن وجودها في القبو في ساعة متأخرة من الليل دليل على أنها من قامت بإغراءه واستدراجه إلى هناك، وإلا فما الذي سيأخذها في ساعة متأخرة من الليل إلى القبو، فقد اكتشفت الشرطة بعد التحقيق، وتفتيش المنزل أن والدها وصديقه كانا يحملان مبلغا طائلا من المال والذي ربحاه في جولة قمار، وقاما بإحضاره إلى منزل والدها ليحتفلا بنصرهما، وهذا ما جعل الشرطة تستنتج بأنها كانت ترغب بسرقة ذلك المال ولم تجد طريقة سوى قتلهما، فقامت باستدراج صديق والدها إلى القبو وقتلته هناك كي لا يشك والدها في شيء ثم صعدت إلى الطابق العلوي أين يتواجد والدها ودفعته من الشرفة، ولأجل إخفاء دليل ارتكابها للجرم قامت بإحراق الجثتين، ولهذا فان ما ارتكبته هذه السجينة ليس مجرد

جريمتين فقد اعتبرت المحكمة ادعاء ندى بأن صديق والدها حاول الاعتداء عليها جريمة لأنها بهذا حاولت تشويه سمعة أحد رجال الأعمال المعروفين في البلد»

زينب :«أتقصدين أن الرجل الذي قتلته ندى من الرجال الأثرياء في البلد»

المشرفة :« نعم، واسمع عقاب وهو يدير مجموعة كبيرة من المقاهي والنوادي، وأظنك سمعت باسمه من قبل»

زينب :« أليس نفس الرجل الذي ألقت الشرطة القبض عليه قبل حوالي ستة أشهر لشكهم بأنه يتاجر بالممنوعات»

المشرفة :« نعم، انه هو، وقد ألقت الشرطة القبض عليه ولكنه خرج من السجن بعد أقل من نصف ساعة، وهذا بفضل معارفه الكثيرين، وقلة الأدلة ضده، انه رجل معروف ومحترم فهو دائم التبرع للجمعيات الخيرية، وهذا ما جعل الناس يحبونه ويحترمونه»

زينب :«وماذا عن لعبه للقمار، أليس هذا دليلا على أنه عكس ما يظنه الناس»

المشرفة :«لا، ليس كما تظنين فهو يمتلك مجموعة من النوادي الليلية ويستضيف فيها الكثير من الرجال الأثرياء للعب القمار من أجل التسلية أي أن ما يفعله ليس خارجا عن نطاق القانون، فهو يتسلى مع أمثاله في نطاق ما يسمح به القانون، أنت تعملين هنا منذ سنوات وأظنك تعلمت في مدة عملك هنا أن بعض القوانين لا تطبق على الأغنياء، أما سبب تعيين المحكمة لمحامي والإسراع في إجراءات القضية فأظنه أصبح واضحا بالنسبة لكي»

زينب :« لا، لم أفهم بعد ما السبب»

المشرفة :« السبب هو أن السيد عقاب ضحية لجريمتها ولهذا سارعت المحكمة في إجراءات محاكمتها وهذا لترضي عائلة عقاب ومعارفه خوفا من أن يثوروا ضد المحكمة إن اعتبرت القضية قضية شخص عادي وتكاسلت في عملها كالعادة»

زينب :« إذا لو كان ضحية جريمتها شخصا عاديا غير ثري لما سارعت المحكمة في إجراءاتها وتباطأت كعادتها»

المشرفة :«ربما نعم، وربما لا، فهذه السجينة قد ارتكبت عددا كافيا من الجرائم التي جعلت المحكمة تتخذ قرارا بإعدامها، فرابع جريمة لها هي إحراقها للجثتين، فالتنكيل بالجثث يعتبر جريمة، وهذا كل ما أعرفه عنها، والآن عليك أن تذهبي إلى عملك فقد أضعت الكثير من الوقت، وتركت القسم دون حراسة»

زينب :«حسنا، سأذهب بعد أن تجيبيني على آخر سؤال، إذا كان السيد عقاب رحمه الله يستضيف الأثرياء من الرجال للعب القمار، فهذا يعني أن والد ندى أحد هؤلاء الرجال أصحاب النفوذ، أليس كذلك»

المشرفة :«لا، ليس كذلك، لم يكن والدها ثريا، لقد كان معطوبا من الجيش بسبب حادث ما لا أعلم ما هو، لهذا فهو لا يعمل وكان يعتمد على معاشه التقاعدي في العيش، وهو مقامر محترف لهذا كان صديقا مقربا للسيد عقاب، فقد كان يعتمد عليه لإنقاذه من جولات تكاد تكون خاسرة، وفي ليلة الجريمة ربح السيد عقاب مبلغا كبيرا بفضل مساعدة والد ندى له في تلك الجولة»

زينب: «إذا فقد كان يلعب من أجل غيره، وليس من أجله، يبدوا أنه كان صديقا وفيا لعقاب»

المشرفة: «نعم، كان كذلك»

زينب: «حسنا إذا، سأذهب الآن»

خرجت زينب من مكتب المشرفة واتجهت إلى القسم B، دخلت رواق القسم فارتعش جسدها، كان الرواق طويلا للغاية، مظلما، وهادئا، تتنفس فيه بضيق فتسمع صدى صوت أنفاسها يتردد، أشعلت زينب نصف الأضواء، وتركت نصفها مُطفئًا كي لا تكون الإضاءة قوية، وبدأت بعدها بتفقد السجينات كعادة كل حارسة، سارت ثم توقفت فجأة، وتحدثت إلى نفسها قائلة «بما أنها فعلت هذا من أجل المال فهذا يعني أنها حاولت الهرب بعد ارتكابها لجرائمها، ولكن المشرفة لم تذكر شيئا من هذا، أيعني أنها لم تحاول الهرب أم أن المشرفة نسيت إخباري بذلك لأني لَم أسألها، ولكن لِما سأسألها إن كان بإمكاني معرفة الحقيقة من السجينة نفسها»، وأسرعت خطواتها باتجاه زنزانة ندى، فتحت باب الزنزانة ودخلت، كانت ندى جالسة وفي يدها ملعقة بلاستيكية تحركها على الأرض جيئة، وإيابا، وهي شاردة لدرجة أنها لم تنتبه لوقوف زينب بجانبها، حتى تحدثت إليها قائلة « أيتها السجينة هلاَ وضعت الملعقة جانبا، وأعرتني اهتمامك بدل شرودك لبعض الوقت»، رفعت ندى رأسها وأمعنت النظر في زينب للحظات من دون أن تنطق بكلمة ثم ركزت نظرها على الأرض مجددا، أكملت زينب حديثها قائلة « أنا الحارسة الليلة لهذا القسم، وقد كنت غائبة عن العمل لمدة، فلم تكن لدينا فرصة للحديث مع بعض، واليوم حين عدت عرفت بحكايتك، ولكني أظن أني عرفت بالجانب المزيف للحكاية، فلكل منا حكاية، ولكل حكاية جانبان، جانب حقيقي، وجانب مزيف، وأنا أرغب بمعرفة الجانب الحقيقي منك لأنك وحدك تعرفينه، أما ما يعرفه عنك الآخرون فهو ما يريدون هم أن يعرفوه، فيصنعونه بأنفسهم، أعلم أنه من الغباء أن يركز المرء على شعوره الداخلي لاتخاذ قرارات تخص عالمه الخارجي، ولكني من هذا الصنف من البشر، فأنا دائما أفعل ما أشعر انه صحيح، واليوم أخبرني حدسي بأن وراءك ووراء عدم قدرتك على النوم سرا مدفونا، ولابد وأن هذا صحيح»، ظلت ندى صامتة، فتقدمت زينب نحوها، وجلست بجانبها،

رفعت ندى رأسها ونظرت إلى زينب، وقالت بصوت خافت يكسوه التعب «تقصدين خيبة مدفونة، فما الأسرار إلا خيبات نتمنى لو أننا لم نعشها، ولهذا ندفنها كي ننساها »

زينب: «حسنا، فلتسميها خيبات، ولكن عليك أن تعرفي بأنه لم تخلق كل الأسرار لتدفن بل خلقت معظمها لتخلد، سواء كانت خيبات أو آمال، فلما لا تخبريني بخيباتك تلك التي تسببت لك بالوصول إلى هنا »

ندى: «ولما أخبرك بها، فهل تخلد أسرارنا إن أفصحنا عنها للغرباء»

زينب: «الغرباء هم فقط من لا تجتمع قلوبهم في مكان واحد»

ندى: «ومتى اجتمعت قلوبنا وأين، فلم نعد غرباء بعدها»

زينب: «ربما اجتمعت في الماضي وسط ذكرياتها، وربما تلك الذكريات هي من تسرق النوم من بين الجفون كل ليلة، فتصنع بذلك التعاسة، وأنا صديقة التعساء، ولست غريبة عن أي منهم، ولهذا فأنا صديقتك، فأخبريني من الذي سرق منك النوم فأتعسك، ومن هو عديم الرحمة الذي قتل أحلامك وجعلك تشتاقين لرؤية الموت»

ندى: «شخص قاس، لم يقتلني حقا، ولم يدعني أعيش، فهو فعل أسوء ما بين الموت والحياة فعلقني بينهما، وكان سببا في معاناتي، واختبار صبري حتى نفاذه بأقسى وأصعب الاختبارات»

زينب: «ومن هو هذا القاسي »

ندى: «شخص من الماضي، أو ربما أصبح الماضي بأكمله»

زينب: «إذا فهو الماضي كما توقعت، يحمل خيباته، ويأتي بها كل ليلة ليقوم بجلسة لنحر أرواحنا، وبتر آمالها بتلك الأسرار المؤلمة التي ندفنها في أعماقنا، ولكن رغم إيلامها لا تستحق أن تدفن»

ندى: «وكيف لنا أن لا ندفنها إن كانت قد أخذت بنا إلى الموت، فلم تترك لنا فرصة لتخليدها»

زينب:« تخلد بأن تبقى حية حتى بعد موت أصحابها، فليست جميع الأسرار تستحق أن تلقى ذلك المصير من الصمت الأبدي، ولهذا يجب أن يكتب كل واحد منا خيباته فيهب بذلك آلامه للورق على شكل كلمات»

ندى:« أتقصدين أن نكتب رواية عن أنفسنا نحتفظ فيها بأسرارنا، وهكذا نكون قد خلدناها»

زينب:« نعم يمكن لكل منا تخليد الجانب السري لحكايته في رواية أو في كتاب، فالروايات والكتب لا تفنى بموت أصحابها، هكذا نحتفظ بالأسرار ونقتلها في آن واحد لنعدم الألم من أرواحنا، فالكتابة تفرغ أعماقنا، وبذلك تشفي قلوبنا من غصات الألم التي تسببها لها الذكريات»

ندى: «هل أنت كاتبة»

زينب: «لا، لكن ربما أصبح كذلك يوما ما، أما اليوم فأريد أن أكون سامعة لحكايتك، أتعلمين أنك من أكثر السجينات تحفظا للأسرار»

ندى:« أما أنت فأكثر الحارسات فضولا، وقسوة، فأنت تريدينني أن ألامس جروحي الملتهبة، وأعيش سنواتي الواحد والعشرين مجددا في ليلة واحد، لم يبقى لي سوى يومين لانتهاء مدة صلاحيتي ، فلما لا تشفقين على روحي، وتدعيها وشأنها، لما ترغبين بقتلي قبل أواني فقط لتقتلي فضولك، أتعلمين مثلما تشعرين أنت بوجود أسرار مخبئة في جعبتي أشعر أنا بفضولك يحترق شوقا لمعرفتها، ولكن ماذا عساي أفعل لفضولك فإن قتله عاشت أسراري ومت أنا قبل أن أعدم، مع أني أعيش كل لياليا في الماضي إلا أن استحضاره كله في ليلة واحدة كافي لقتلي، والآن دعي فضولك جانبا لبعض الوقت، وأخبريني لماذا تعدم أرواحنا قبل أجسادنا أليست متصلة ببعض، بعد يومين سيعدم جسدي فقط وليست روحي أيتها الحارسة، فلو تعلمين كم مرة أعدمت روحي وقطعت أجزاء بعد أن نحرت لأشفقت علي من الماضي، كنت في كل مرة أعيد جمع أشلاء روحي قطعة بقطعة، ودائما ما كانت تضيع مني بعض القطع وآخر مرة حين وددت جمعها لم أجد أنه تبقى سوى قطعة واحدة، كانت تلك القطعة هي الماضي، أما باقي القطع فقد ضاعت للأبد ضاعت الثقة والحب، ضاع الأمل، وضاع كل شيء»

زينب:« بإمكانك إعادة جمعها مجددا»

ندى:« وماذا عساي أفعل بها إن جمعتها مجددا، أأجمعها لآخذها معي إلى ساحة الإعدام»

زينب: «يبدوا أنك اكتفيت من الحياة، لكن الحياة لا تكتفي ممن يكتفون منها»

ندى: «لا أبدا فالحياة اكتفت مني وسلمتني للموت ربما أنت الوسيطة بيني وبين الحياة والموت وهذا ما جعلني أكسر صيام صمتي وأتحدث إليك فالحياة طلبت منك إخباري بأنها لم تعد ترغب بوجودي والموت طلب منك أن توصلي لي رسالته بأنه يرغب بملاقاتي، فمنحتني الأمل الذي ضاع مني لسنوات بهذا الخبر ».

زينب:« أتعلمين يا ندى حين يخوننا الجميع يقتلون الثقة فينا، فلا نثق بعدها بأي أحد مهما كانت صفته رغم أننا ندري أن في هذا العالم أناسا سيئين وأناسا جيدين ولكننا دائما نتوهم أن كل من يظهر في

حياتنا شخص سيء وهذا لأنه في أغلب الأحيان يحظى الجيدون بالمصير الذي يستحقه السيئون، ولهذا فنحن لا نملك معايير للتفريق بين من هو سيء ومن هو جيد، وربما أنت حظيت بهذا المصير، ومصير المرء يا ندى هو قراره الشخصي الذي اتخذه في لحظة ضعف وخوف أو غباء وجنون أو حتى في لحظة حب»

ندى: «معك حق فمصيري أنا من قررته فأنا لم أكن سوى ضحية نفسي، وضحية صمتي وخوفي، فأنا من أوصلت نفسي إلى ما أنا عليه فقد تقاسمت منزلي مع الألم، ذلك المنزل الذي لم يكن منزلا عاديا، كان صندوقا مليئا بالذكريات مفتاحه الماضي، أذكري أي شيء من الماضي، وسيفتح الصندوق ليأخذك إلى عالم لا أحد سيحسدك على العيش فيه، تدخلينه لتجدي سقفه يمطر يأسا على قلبك ولا مظلة أمل لكي لتنقذي بها نفسك من الغرق في الألم، ذلك الألم الذي رحت أهبه أغراضي حتى جردني من كل ما تحمله الحياة من معان جميلة، ربما كان علي أن أترك ذلك المنزل الذي أصبح ملكا للألم بعد رحيل أمي، لكني بقيت فيه لأن لا مكان لي سواه أتحمل لسنوات موجات الحزن والاشتياق المغرقة، وأرتجف في أعاصير من الخوف والألم، يقتلني الماضي كل يوم في صمت، ينحرني كل ليلة حين أغمض عيناي فلا أرى شيئا سوى منظر أمي تسبح دمائها، وعيناها مفتوحتان وهي تركز نظرها علي، فأفتح عيناي لأجد الوحدة، الرعب، والظلام يحيطون بي حتى أتى يوم لم أعد أغلق فيه عيناي أبدا، ورغم ذلك بقيت صامتة أتحمل ذلك الألم لوحدي حتى هذه الساعة، فلم أكن سوى ضحية لصمتي»

زينب: «اكسريه إذا، اكسري ذلك الصمت الذي رحت ضحيته»

ندى: «رغم أن الكلام لم يعد ينفع الآن إلا أني سأتكلم ليس لأتوقف عن كوني ضحية صمتي بل لأفرغ أعماقي في هذا العالم قبل أن أرحل لأترك له أحزاني بأسراري تلك فهو يستحق ذلك، ولكن من أي سر أبدأ البوح فحكايتي كلها أسرار، أمن رعب وصدمة طفولتي أبدأ، أو من استغلال ضعف مراهقتي أبدأ، أو اختصر لكي الحكاية بالنهاية »

زينب: «ابدئي من حيث بدأت حكايتك، فالبدايات هي التي تكتب النهايات، إذ تبدأ المعاناة صغيرة لتنتهي كبيرة »

ندى: «بدأت حكايتي حين هربت أمي من منزل جدي لتتزوج أبي ظنا منها أن الجب وحده يفي بالغرض لتعيش سعيدة مدى العمر، فكنت أنا ضحية حبها الساذج ذاك، من هنا بدأت الحكاية، حكاية حب أعدمت شخصياتها في النهاية، لم تكن أمي سوى امرأة تبحث عن الحب الأسطوري الذي يخلد ولا ينسى مع مرور الزمن كالحكايات التي كانت تسمعها في طفولتها وتحكيها في طفولتي، فهي لم تكن تعلم بأنه ليست كل حبال الكذب قصيرة، وبأن هناك كذبات خلقت منذ خلقت البشرية، ولن تفنى إلا بفناء البشر، والحب أحد تلك الكذبات التي طالت حبالها ولم تتقطع، ولا يزال هناك من يصدقها ولن يتوقف عن ذلك

حتى يروح ضحيتها، كانت أمي تعيش في إحدى القرى الريفية حيث الحب معصية يرجم مرتكبها بحجارة العار حتى الموت، وكانت تدري ذلك، لكن عودة أبي آنذاك من الجيش كانت تغريها للحب، فقد كانا يعرفان بعضهما جيدا في فترة طفولتهما، وكما كانت تقول أمي فقد كانا يحبان بعضهما منذ الصغر، وانضمام أبي إلى الجيش في فترة مراهقته جعل حب أمي يزداد ويكبر ويكاد يكسر كل الحواجز، فالبعد يصنع الاشتياق ، والاشتياق هو ما يجعل من الحب حبا، ومن الحب شهيا، عاد أبي معطوبا من الجيش بعد سنوات من الخدمة بسبب اختراق رصاصة ذراعه وقت تدريبه أحد المبتدئين على حمل السلاح، رحل مراهقا، وعاد شابا جذابا في نظر كل فتيات القرية أما في نظر أمي فقد كان فارس أحلامها المنتظر، وبعد فترة من عودته بدأت لقاءاتهما السرية والتي كانت تزيدهما لهفة وغيرة في كل مرة حتى قررا الزواج، وككل القصص دائما ما تكون هنالك عقبات، وفي قصص الحب دائما ما تكون العائلات هي العقبات، فعائلاتهما لم توافق على زواجهما، وكل جهود أمي وأبي في محاولة إقناع أهلهم بالزواج لم تزدهم سوى قيودا من قبل الأهل، وكلما ازدادت قيود البشر قوة، ازدادت رغبتهم للحرية، وسعوا بكل الطرق للحصول عليها، ولهذا فقد قرر والداي الهرب ليحصلا على مبتغاهم، وقدما إلى هنا، تزوجا فور وصولهما، وبعد فترة قصيرة اشتري أبي منزلا بعيدا عن صخب المدينة وضجة الطرقات، وهذا ما زاد من سعادة أمي التي خرجت من سيطرة القبيلة وقراراتها الجماعية التي لا رجعة فيها، فكانت سعيدة بأن حياتها لم تعد ملكا لأهل القرية بل ملكا لها ، وظنت أن حب أبي سيغنيها عن كل شيء وعن كل نقص، فقد كان بالنسبة لها الأمان من خراب الحياة، والحب الذي لا يحظى به إلا المحظوظون، ولم تكن تدري أن ذلك الحب ما هو إلا قاتل متسلل سيقتل كل ما في روحها، ثم يقتل نفسه منتحرا برصاصة الغدر، فهي كانت تؤمن بمقولة أن "الحب جواز سفر لقلوب الناس دون تأشيرة"، ولو تكن تدرك أن هجرتها غير الشرعية لبلاد الحب تلك ستكلفها الغرق في بحر من الدموع، ومن ثم ستكلفها حياتها، فهي لم تكن تعلم ما قد يتعرض له مهاجر غير شرعي في بلاد لا يعرفها، بلاد الحب، بلاد القوانين الصارمة حيث يسرع قضاتها دائما لتطبيق أقسى العقوبات على من يظنون أنفسهم استقروا في قلوب غيرهم، كانت أمي تظن أن حب أبي حب دائم لا يزول، ولكن سرعان ما انتهت لهفة ذلك الحب، وأظن أنه بعد ولادتي لم يعد للحب مكان في ذلك المنزل، فأنا لا أذكر أن أبي عاملنا بحب واهتمام ولو لمرة، لا أذكر سوى شجاراتهما المتكررة، والتي لم أكن أفهم سببها، فكنت أسأل أمي أحيانا لما تتشاجر مع أبي، ولكنها لم تجبني ولا لمرة، وفي آخر مرة سألتها لما تشاجرت مع أبي، قالت «أعدك ألا ترينا نتشاجر مجددا، أعلم أن شجاراتنا تخيفك»، فبعد أن أصبحت شجاراتهما وجبة عشاء اعتدت تناولها كل ليلة اكتشفت أمي أنها تخيفني، وبالفعل لم أعد أراهما يتشاجران منذ ذلك الوقت، فقد كانت أمي تغلق علي في قبو المنزل المظلم، البارد، والمخيف، خوفا علي من أن تخيفني شجاراتهما التي اعتدتها حد اعتيادي على التحدث إلى دميتي كل ليلة قبل أن أنام، نسيت أمي مرة أن تحبسني في القبو، وليتها لم تنسى، كان ذلك آخر شجار لها مع أبي، كانت أمي يومها ترتب المنزل، وتجهز أغراضي لدخول

الإعدادية، فقد تخرجت من الابتدائية في تلك السنة، وكان موعد الدخول المدرسي قريبا، كنت ألعب في الحديقة حين عاد أبي، كان يتحدث على الهاتف ويسرع بخطواته إلى الداخل، وفور دخوله صعد الطابق العلوي، وهو يصرخ وينادي باسم أمي ويبحث عنها، رفعت رأسي للأعلى فوجدتها واقفة في الشرفة شورت لها بيدي وابتسمت، فبادرتني بابتسامة الوداع الأخير وشورت لي هي الأخرى بيدها وكأنها تقول لي وداعا يا ندي، وداعا من دون عودة ولا وصية أخيرة، وفي تلك الأثناء أمسكها أبي من ذراعها وأدارها إليه، كان يهزها ويصرخ غاضبا ويحاول أن يأخذ منها شيئا بدا لي وقتها أنه صندوق أسود، كانت ممسكة به بقوة، وتأبى تركه، وهذا ما كان يزيد من غضب أبي، فأمسك الصندوق بقوة وشده إليه، ودفع أمي بقوة أكبر، دفعها لتقع أرضا عند قدمي، من صدمتي أوقعت دميتي من يدي وتسمرت في مكاني، فبدأت الدماء تتسلل إلى الدمية، ثم زحفت مسرعة نحوي وبللت قدمي، شعرت بأمي تغرق وتغرقني معها في بحر أحمر، وفي تلك الأثناء نزل أبي مسرعا، كان ينظر إلى عيني أمي ونظرتها التي تحمل صدمة العمر، ثم ينظر إلي ويقول «ندى وقعت أمك من الشرفة»، لم تقع أمي من الشرفة أبي هو من دفعها لتنتهي حياة أمي وتبدأ مأساة حياتي، لم أفهم إن كان يريد أن يقنعني بأنها وقعت كي لا تعرف الشرطة بأنه قاتلها، أم كان يريد أن يقنع نفسه بذلك، وبالفعل أقنع نفسه وأقنع الشرطة وأقنع الجميع بذلك، أما أنا فلم يقنعني أبي ولا خوفي منه بتلك الكذبة، وأظنه كان يدري أنني لم أصدق كذبته رغم أني لم أتفوه بكلمة إلا أن نظرتي له كان تكفي ليفهن أنني لا أصدقه ولا أثق به وأنني أرتعب من وجوده معي، ولذلك سجلني في مدرسة داخلية، لا أعلم إن كان إبعاده لي من أجلي أو من أجله، فوجودي كان يربكه مثلما كان وجوده يرعبني،

هذا كان الفصل الأول لحكايتي، فصل الرعب والصدمة، فصل كنت أظن في بدايته أنه كابوس وسينتهي حين توقظني أمي في الصباح، تراني لم أكن نائمة، ولن أستيقظ من كابوسي، ولا حتى سأنام مجددا، تراني في هذا الفصل دفنت طفولتي مع أمي في قبر واحد، ودفنت دميتي التي كنت أحادثها كل ليلة قبل أن أنام ودفنت نومي معها، فأصبحت في هذا الفصل يتيمة الأم والأمل، يتيمة الأمان والحنان، ويتيمةً حتى للأحلام»،

ثم رفعت ندى رأسها، ونظرت إلى زينب بعينان لامعتان يكسوهما الحزن، وقالت مبتسمة «أيتها الحارسة ألا يكفيك فصل واحد لليلة واحدة أم أنك تريدين لذاكرتي أن تقتلني قبل موعد إعدامي»،

ابتسمت زينب والدموع في عينيها، وقالت « أتعلمين يا ندى حين تتحطم القلوب تتحول إلى شظايا تماما كقطعة زجاج حين تقع أرضا فتنكسر، ولا يبقى منها سوى شظايا الزجاج، حين ندعس عليها بقوة تنغمس في أقدامنا بغضب وتؤذينا، أما حين نلامسها برفق فلا تؤذينا، وقلبك حدث معه تماما كما

يحدث مع قطع الزجاج، ربما أحدهم دعس على شظاياه بقوة فانغمست فيه بغضب، أما أنا فلا أظنني فعلت ذلك، فربما لمست شظايا قلبك، ولكن برفق»

ندي:« ربما أيتها الحارسة، ربما، أتعلمين سيئون جدا أولئك الذين يدعسون على الشظايا سواء شظايا الزجاج أو القلوب، فهم يدعسون عليها ثم يلومونها ويحملونها مسؤولية جراحهم»

زينب:« نعم، جد سيئون يا ندى أولئك الذين ماتت ضمائرهم، فقتلوا بموتها أرواح الكثيرين، ويستحقون أقسى العقوبات، ومع ذلك لا يعاقبون بل ويزدادون احتراما وتقديرا كلما ازدادت قسوتهم»

ندى:« ربما القسوة ليست السبب في ذلك بل الثراء هو السبب، ففي هذا الزمن تقاس قيمة الناس بقدر ما يملكون من مال، فإن كنت تملك المال سيحبك الجميع ويحترمك، وإن لم تكن تملك المال فسيكرهك الجميع ويحتقرك، فبعدم امتلاك المال لا يمتلك الشخص سببا لنيل احترام غيره، ولهذا نال عُقاب احترامًا لا يستحقه فهو قد اشترى احترام الناس بالمال»

شردت زينب للحظات بعد سماعها لكلام ندى ثم قالت « عقاب إذا، لم أكن أتوقع ذلك فقط بل كنت متأكدة، أخبرتك أن حدسي لا يخطئ، إذا فما حكاية رجل الأموال والمعارف لعنه الله وأسكنه فساح جهنم»

ندى:« يبدوا أنك لم تسمعي يوما بحرمة الميت»

زينب:« ويبدوا أنك لا تعرفين أنه ليس جميع الناس سواسية حتى حين يتعلق الأمر بالموت، والآن أخبريني بالحقيقة المزيفة بالأموال لمعشوق الجماهير السيد عقاب الموقر»

ندى:« ولما كل هذه العجلة أيتها الحارسة الفضولية، يبدوا أنك لا تحبين القراءة بتأني، أنت من النوع الذي يركض دائما نحو النهايات، فتقرئين القليل من الفصل الأول لتتعرفي على شخصيات الحكاية ثم تركضين لقراءة آخر صفحات الفصل الأخير، تمهلي تمهلي ففي حكايتي فصول كثيرة وعقاب لم يظهر سوى في آخر فصولها، أم أنك لا ترغبين بسماع الفصل الثاني من حكايتي، فصل الضعف والاستغلال، فصل اغتصاب بقايا الروح والجسد، أترغبين بإيقاف جلسة استحضار الماضي التي قمت بها، أأخافتك أشباحه حين حضرت أو ماذا»

زينب:« معك حق، مخيفة هي أشباح الماضي حين تحضر مجتمعة، مخنقة ومربكة، إذا يا ندى فلكل محطة من عمرك فصل من الوجع، ربما لعنة ما لاحقتك منذ الصغر»

ندى:« نعم، وأظنها لعنة قبيلتي أمي وأبي مجتمعتين»

زينب:« ندى لم تخبريني لماذا دفع والدك بوالدتك من الشرفة، أكانت نيته حقا قتلها، ربما لو كانت هذه نيته لفعل هذا بطريقة أكثر حذرا وحيطة وبعيدا عن ناظريك، فكل الأزواج يتشاجرون ويتصالحون، ولكنهم لا يقتلون بعضهم مهما كثرت خلافاتهم، إذ أن هناك طرقا أخرى لإنهائها غير القتل كالطلاق مثلا»

ندى:« أحيانا لا يكفي الطلاق ليشفي غليل أرواح تحول فيها الحب بكل شغفه إلى كره، وكل ذلك الشغف بالحب إلى شغف بالانتقام، وربما كان والدي يدري ذلك، وكان يدري أن حب أمي وصل إلى أقسى درجات الحقد والكره، فالحب في طياته يحمل الكثير من المتناقضات، بعض من الغيرة، وبعض من الخوف، وبعض من الحقد والكره، وإن طغت إحدى هذه الصفات على الحب، لن يعود للحب وجود، وهذا ما حدث مع أمي حين اكتشفت أسرار أبي المخبئة في ذلك الصندوق الأسود، وهي ترتب المنزل، تحول كل حبها لحظتها إلى حقد على والدي، وخوفا منه على أن تكشف أسراره فدفنها بقتل أمي»

زينب:« وما الذي كان في ذلك الصندوق، لا بد وأنه سر خطير للغاية جعل من والدك يصبح قاتلا بدم بارد في لحظة »

ندى:« لم أكن أعلم حينها، فأنا لم أرى ذلك الصندوق النحس مجددا منذ ذلك الحين، فقد اختفى بعد أن سرق مني أمي، طفولتي وأحلامي»

زينب:« يمكن لأشياء بسيطة أن تدمرنا في لحظة، تماما كذلك الصندوق، وكالماضي حين يهجم بالذكريات دفعة واحدة، ولهذا يا ندى لا أعلم أأعزيك على ما مضى أو على هذه اللحظة التي اجتمع فيها كل ما مضى»

ندى:« لا داعي لذلك فبعض المواقف لا تغيب للحظة عن الذاكرة، فليس كل الماضي ماض فبعض الماضي حاضر لا يغيب»

مرت الساعات واقترب الليل من نهايته، ولم تشعر الحارسة ولا السجينة بذلك فوحدة ندى في زنزانتها، ووحدة زينب أثناء حراستها هي ما تجعل من لياليهم طويلة، أما لقاءهما الذي كسر تلك الوحدة فقد جعل ليلتهم قصيرة، وأقل وجعا رغم ما استحضرته من أوجاع، انتبهت زينب لصوت خطوات قادم، فوقفت وسارت باتجاه الباب لتتأكد مما سمعته، ثم قالت:« أظن أن إحداهن قادمة»

قالت ندى:« اذهبي إذا قبل أن يروك، فيمنعك هذا من أن تحظي بنهاية الحكاية»

زينب:« حسنا ندى سأذهب الآن، وأعود فيما بعد إن أمكنني ذلك»

خرجت زينب من الزنزانة، وسارت باتجاه مكتب الحراسة، بعد أن أغلقت باب الزنزانة، وابتسمت لندى من وراء قضبانه، وعند اقتراب زينب من المكتب سمعت صوت خطوات يقترب، فجلست على كرسي المكتب، ولحظتها سمعت صوت الحارسة نجاة تناديها وتحرك مصباحها جيئة وإيابا، فوقفت من مكانها وقات:« نجاة أنا هنا في المكتب»، اقتربت نجاة وقالت:« أنت هنا إذا يالي طول هذا الرواق أظنني مشيت ربع ساعة لأصل إلى هنا، ولكن لما الإضاءة خافتة هكذا أليس هذا أكثر الأقسام إضاءة »

زينب:« لقد قمت بخفضها كي لا تزعج السجينات، هل انتهي دوامك، أم أنك تريدين استعارة هاتفي كالعادة»

نجاة:« لا لم آتي من أجل الهاتف فقد تعلمت من غيابك في المدة الماضية أن أتوقف عن استعمال الهاتف وقت الحراسة، لأن الحارسة التي تعمل معي بخيلة، ولا تسمح لي بالاقتراب من هاتفها، وبطارية هاتفي كعادتها لا تصمد لأكثر من ثلاث ساعات، لهذا أكمل باقي ساعات حراستي في تصفح الجرائد أو تناول الطعام، وأنام أحيانا أخرى، وأنت ماذا تفعلين »

زينب:« لا شيء سوى قراءة الكتب، والسير من زنزانة إلى أخرى لتفقد السجينات»

نجاة:« صبورة كعادتك على البقاء في هذه الأجواء الكئيبة»

زينب:« لم تخبريني هل انتهت مدة حراستك أم أنك تركت القسم دون حراسة كعادتك»

نجاة:« بالطبع تركته، فأنا لست ملزمة بالجلوس دون حراك على كرسي المكتب، ولا بالتجول جيئة وإيابا في رواق كئيب خال من الحياة، معظم الحارسات تأتين ليلا لتنمن، حتى الحارسة التي أتقاسم معها دوام الليلة كانت نائمة وقت حراستها، أظنك الوحيدة التي لا تنام وقت حراستها وأنت لديك أسبابك، والآن دعينا من الحديث عن العمل وأخبريني كيف كانت إجازتك في ألمانيا»، راحت زينب ونجاة تتبدلان أطراف الحديث وتنهيان بحديثهما ما بقي من ساعات قليلة لانتهاء تلك الليلة إلى أن دقت الساعة التاسعة فافترقتا كل منهما إلى منزلها، دخلت زينب منزلها استحمت وتناولت طعامها، كانت ترغب بشدة أن تمر ساعات النهار وتنقضي بسرعة، فراحت تلهي نفسها بالركض على آلة المشي، ومشاعر من الشوق والفضول والشفقة تنتابها كلما تذكرت كلام ندى وابتسامتها المليئة بالوجع، ونظرات عيونها اللامعة من الأسى، فرغم أنها لم تستمع سوى لبداية القصة إلا أنها كانت تشعر أن ندى ضحية وليست مجرمة، وبعد ساعات توجهت إلى العمل، ووصلت قبل أكثر من ساعتين، فراحت تضيعها بالحديث مع زميلاتها وتنظر لساعتها كل بضع دقائق منتظرة أن تجتمع عقاربها عند الرقم تسعة حتى حانت تلك الساعة، فوقفت زينب واتجهت مباشرة إلى القسم B بعد أن ودعت زميلاتها اللاتي لم يرغبن في ذهابها فهي في قلة من الأوقات ما تضيع وقتها بالثرثرة معهن، دخلت زينب وسارت من زنزانة إلى

أخرى تتفقد السجينات حتى وصلت إلى زنزانة ندى، وقفت للحظات تتأملها ثم دقت قضبان الزنزانة بلطف لتصدر صوتا ينبه ندى بقدومها، كانت ندى مستلقية على ظهرها تركز نظرها نحو السقف شاردة الذهن كعادتها، وما إن سمعت ذاك الصوت حتى وقفت من مكانها واتجهت نحو باب الزنزانة قائلة:« كنت بانتظارك أيتها الحارسة وكنت أعلم بأنك لن تتأخري عن القدوم ففضولك لن يسمح لكي بذلك»

زينب:« أخبرتك بأن اسمي زينب، فلما لا تتوقفين عن مناداتي بالحارسة»

وفي تلك الأثناء لمحت زينب إحداهن قادمة، وحين أمعنت النظر عرفت من خلال عربة الطعام التي تجرها أنها سلمى المكلفة بتوزيع الطعام على السجينات، جاءت لتقديم وجبة العشاء، فنظرت إلى ندى وقالت « سأذهب الآن وأعود فيما بعد حين تنتهي مقدمة الطعام من جمع الأطباق»، اتجهت زينب إلى مكتبها، وجلست هناك منتظرة مغادرة سلمى لتضمن ألا تراها وهي تدخل زنزانة ندى لأنه يمنع على الحارسات القيام بهذا، وبعد لحظات تقدمت إليها سلمى وهي تجر عربتها وقالت:« زينب، كيف حالك، لقد أحضرت لكي العشاء»

زينب:« بخير، شكرا لك، فقد تناولت طعامي في المنزل، ولست جائعة»

سلمى:« حسنا، كما ترغبين سأذهب إذا»

زينب:« هل أنت ذاهبة لجمع الأطباق»

سلمى:« لا، ليس بعد فأنا أنهيت للتو توزيع الطعام وسأذهب الآن للتوزيع على باقي الأقسام، وسأعود فيما بعد لجمع الأطباق»، صمتت زينب لوهلة بينما كانت سلمى عائدة أدراجها ثم قالت:« سلمى أعطني طبقا غيرت رأيي وسأتناول القليل فأنا بدأت أشعر بالجوع، وأعتذر لإزعاجك»، وضعت سلمى الطبق على المكتب قائلة « لا عليك فجميعنا تفتح شهيتنا برؤية الطعام، أتريدين شيئا آخر»

زينب:« لا شكرا لا أريد شيئا، أريدك فقط أن تأتي لأخذ الطبق فيما بعد حين تنهين جمع الأطباق من السجينات، فأنا أخاف أن يجتمع عليه النمل إن بقي هنا حتى الصباح»

سلمى:« لا عليك سآتي لأخذه بعد أن أكمل توزيع الطعام على باقي الأقسام، وجمع الأطباق من هذا القسم»، وغادرت

لم تكن لزينب أي شهية للأكل فقامت ببعثرة الطعام لتبدوا أنها أكلت منه، فهي طلبت من سلمى أن تضع لها طبق الطعام وتعود فيما بعد لأخذه لتتأكد أنها أكملت جمع أطباق السجينات، وسيكون طبق زينب آخر طبق ستأخذه وتغادر، وهكذا تعرف أنها أنهت عملها ولن تعود إلى القسم على غفلة منها، ظلت زينب تنتظر وهي تحادث نفسها قائلة بغضب « لا بد وأنها تلهوا وتثرثر وأنا أنتظر هنا»، ثم

اختفي غضبها حين سمعت صوت العربة وهي تجر قادم باتجاهها، أوقفت سلمى عربتها واتجهت إلى المكتب قائلة « لم تتناولي سوى القليل أظنه لم يعجبك، وحملت الطبق.

زينب:« أعجبني لكنني لست جائعة لأتناوله كله»

سلمى:« هل أتركه فربما ترغبين في تناوله فيما بعد»

زينب:« لا رجاء، لا أرغب ولا أظنني سأرغب في تناول شيء، أشكرك على اهتمامك»

سلمى:« حسنا إذا سأذهب الآن»، غادرت سلمى وظلت زينب تراقبها حتى خرجت من الباب الرئيسي للقسم، ثم اتجهت إلى زنزانة ندى، فتحت باب الزنزانة ودخلت ، اتجهت نحو ندى وجلست بجانبها، وقالت« ندى أريدك أن تخبريني بباقي الحكاية الليلة، فنحن لا نملك الكثير من الوقت وعلينا أن نكشف أن والدك وعقاب ليسا مجرد ضحايا لجريمتك بل مجرمين أنت ضحيتهما، ولهذا أخبريني بكل شيء لأستطيع معرفة كيف أساعدك»

ندى:« ومن أخبرك أنني بحاجة إلى المساعدة، أنا لا أخبرك بقصتي لتساعديني، فما فات قد فات، ولا شيء يمكنه تغييره»

زينب:« ربما لا يمكننا تغيير الماضي، لكن بإمكاننا تغيير الحاضر»

ندى:« وهل تظنين أن ما أعيشه الآن حاضر، أنا لا أعيش سوى في الماضي أيتها الحارسة لم أخرج منه يوما ولن أخرج مهما حاولت»

زينب:« أخبرتك ألا تناديني بالحارسة، اسمي زينب فلتناديني به، وأنا هنا لمساعدتك وليس لإغراقك في الماضي الذي لم يعد موجودا، ولم يعد بإمكانه إيذائك مهما غرقت فيه»

ندى:« يبدوا أنك غاضبة الليلة وتصرين على أن ما مضى لا يمكنه إيذائي، ماذا لو أخبرتك بأن في هذا الماضي المسالم الذي تتحدثين عنه أُغتصبت ذات شتاء من قبل ثلاثة وحوش بشرية في غابة مظلمة وباردة، فلم يسمع في إحدى لياليها المرعبة سوى صوتان، صوت عواء الذئاب، وصوت صراخي وأنا أستجد بتلك الذئاب لتنقذني من أولئك الوحوش، لأن تلك الذئاب يا زينب أرحم بكثير من البشر صدقيني، وعواءها كان يطمئنني بأني لست وحيدة، هكذا كان ماضيَ، قتل والدي والدتي في طفولتي أمام عيني، وتعرضت للاغتصاب في مراهقتي، أأخبرك بما حدث في بداية شبابي أيضا أو أتركها مفاجئة، أخبريني الآن إن كان ماضٍ كهذا لا يؤذي»

زينب:« أنا آسفة (والصدمة بادية على وجهها، تلمع عيناها بالدموع، ولكنها تأبى الخضوع لمشاعرها)، آسفة جدا، لم أكن أرغب بجعلك تتذكرين هذه الصدمات بهذه الطريقة»

ندى:«أ تذكرها، وهل أنساها لأتذكرها، إنني أعيشها يا زينب طيلة هذه السنين، كل يوم، كل ساعة وكل دقيقة »

زينب:« رجاء أخبريني بماذا يمكنني أن أساعدك، فأنا لا أرغب بسماع قصتك على حساب تعاستك، فأنا أعلم أن الحديث عن الماضي مؤلم كما هو مشفي»

ندى:« أحتاج إلى عملية استئصال للذاكرة، وعملية كهذه الموت وحده يمكنه إجراءها، والآن لا تحملي نفسك مسؤولية ما يفعله الماضي بي، فأنت لست السبب في أن أتذكره، أخبرتك بأن الماضي بحوادثه وذكرياته يلازمني في كل لحظة من حياتي، ألم تأتي لسماع باقي حكايتي، فلتسمعي إذا ودعينا لا نضيع الوقت، أخبرتك في الليلة الماضية بما حدث في طفولتي والآن سأخبرك بما حدث في فترة مراهقتي»

زينب:« أخبريني يا ندى، ولكن بلطف على قلبك المتعب، فأنا لا أريد أن أكون سببا في إتعابه أكثر»

ندى:« (مبتسمة)، لا عليك لن تكوني كذلك »، ركزت ندى نظرها على الأرض وبدأت تروي الفصل الثاني من حكايتها.

الفصل الثاني:

في الليلة الأولى بعد وفاة أمي، وعودتي من المقبرة بعد أن رأيتها لآخر مرة ملفوفة بالأبيض، دخلت ووالدي المنزل وصعدت فورا إلى غرفتي، كنت لا أزال مصدومة، دخلت سريري، وقمت بلف نفسي واحتضانها بقوة ببطانيتي، كنت أرغب بشدة أن أنام لأهرب من تلك اللحظة القاسية بالنوم، وكلما أغمضت عيني أرى ذلك المنظر أمامي، منظر أمي غارقة في الدماء، عيناها مفتوحتان وتنظر إلي بنظرة كانت ترعبني بشدة، فأفتح عيني فورا، بقيت على تلك الحال لساعات أحاول دفع نفسي للنوم، أتحدث معها وأترجاها لتنام لكن من دون جدوى في البداية ظننتها لا تريد النوم ثم عرفت أنها لا تستطيع، كانت هذه بداية الأرق في حياتي، لكن الأرق لم يكن مرعبا بقدر رعب ما اكتشفته بفضل عدم قدرتي على النوم، فقد كان أبي يظنني نائمة لأني كنت أدعي ذلك كلما دخل غرفتي فيخرج منها ويغلق بابها بهدوء، ليفتح بعدها باب المنزل لعشيقاته ولصديقه عقاب وغيره من رجال العصابات، فأصبح ذاك المنزل الذي كان مملكة أمي ملهى ليلي يفتح أبوابه للعاهرات، وتجار المخذرات بسبب أبي، كنت أراقب ذلك كل ليلة وأنا مختبئة وراء إحدى جدران الطابق العلوي، أقسم لك يا زينب أنني كنت متعبة أقسى درجات التعب في ذلك الوقت، شيء ما بداخلي كان يؤلمني بشدة، كنت أشعر أني أختنق وأن شيئا ما اخترق قفصي الصدري، ودخل قلبي مسرعا ليستقر فيه، ولم يكن ذلك سوى الألم الذي سببه لي أبي فقد تحول في تلك الليالي إلى جرح عميق جدا، لم يشفى مع الوقت ولا مع أي عامل آخر، فقد التهب بشدة، لقد استنزف أبي كل طاقتي حين رأيته يجلس في حضنه امرأة تمرر يديها عليه فيسعده ذلك، وأنا التي لم يحويني حضنه ولو لمرة في حياتي، حتى حين أخذ مني أمي وحرمني من طفولتي لم يعزيني، كانت الدموع تنهمر من عيوني لساعات دون توقف حين أراه يستشق تلك البودرة البيضاء والتي لم أكن

أدري ما هي في ذلك الوقت ، فيصبح شخصا آخر، يرقص فرحا على أوتار قلبي بعد أن حوله إلى رماد، ويتحرك مع إيقاع أحزاني، كنت أقف لساعات حافية القدمين أخاف أن يصدر حذائي صوتا يشي بوجودي، أتجمد بردا كل ليلة حتى تحولت إلى صنم في أعماقي، مرت ثلاث أسابيع بعد موت أمي على هذا الحال، ليالي من الصدمة، والرعب يؤنسها الأرق وكثير من الألم فأصبت بعدها باللاشعور من شدة ذلك الألم، وهكذا دخلت الإعدادية تمثالا لندى، ولست ندى، كنت أقضي أسبوعا كاملا في السكن المدرسي، وأعود للمنزل كل عطلة أسبوع، وكان والدي في الأسابيع الأولى هو من يصطحبني إلى المنزل في أيام العطل، وبعدها توقف عن ذلك، ربما لأنني تعلمت كيف أقوم بذلك وحدي، أو ربما لأنه مل من اصطحاب تمثال في سيارته، كنت في بداية دخولي للإعدادية وبالأخص وجودي في السكن أكره الليل خاصة حين أرى الجميع نائمات، فأكرهه وأكره هدوءه الصامت الذي يقتل بخبث وبطئ شديدين، فأنا في كل دقيقة من تلك الأجواء أتذكر ما يؤلمني فالوحدة والهدوء يذكرانني بالمعاناة، فما بالك بليلة مظلمة تسكنها الوحدة، وما بالك بمئات من هذه الليالي الحالكة، ثم مع الوقت اعتدت الظلام، وأصبحت أحبة وسأكون ناكرة للجميل إن لم أفعل فهو الوحيد الذي لم يفارقني وظل مخلصا لي وواقفا بجانبي في كل أوقاتي سواء السيئة أو السيئة جدا، ولم يتوقف لليلة عن احتضاني، لذلك كنت أقضي الليالي بطولها أحادثه وأشكره عل مرافقته لي في مسيرة معاناتي، أما في النهار فكنت مطيعة ومهذبة وقت الدراسة، وشارة الذهن معظم الوقت، ومع ذلك كنت أحاول الاجتهاد فأنا لم يكن لدي سوى الدراسة لأؤنس بها وحدتي إضافة إلى عدد قليل ومحدود من الصديقات، وهكذا قمت بترميم نفسي بنفسي في تلك السنوات الأربع من دراستي في الإعدادية، ثم أتى ذلك اليوم الذي تعرضت فيه لهدم كلي، كان يومها آخر أيام الدراسة، لملمنا أغراضنا جميعا، واتجهت كل واحدة منا إلى مكان سكنها لنقضي عطلة الشتاء في منازلنا، ونعود بعد أسبوعين إلى السكن، وكم كنت أكره العطل فهي تجبرني على العودة إلى المنزل، وفي كثير من المرات ما أعود إليه فأجد عقاب مع والدي، فالأشياء السيئة دائما ما تجتمع مع بعض، يومها كان الجو ماطرا، والشوارع مزدحمة للغاية، وقفت لساعات في محطة الحافلات، وبعد أن ركبت الحافلة وأوصلتني إلى نصف وجهتي كالعادة، وبعدها وقفت في المحطة الثانية أنتظر قدوم الحافلة التي ستوصلني إلى حيَ السكني، وفجأة لف أحدهم ذراعه حول خصري، وأمسكني بقوة، وما إن حاولت الصراخ والمقاومة، حتى أغلق فمي بمنديل ففقدت وعيي مباشرة، ولم أعد أشعر بشيء، وحين فتحت عيني وجدت نفسي مكبلة في الصندوق الخلفي للسيارة، وشعرت أن السيارة تسير في طريق جبلي، فهي كانت ترتطم بالحجارة باستمرار حتى توقفت، وبعد لحظات فتح أحدهم صندوق السيارة (تنهدت ندى بصوت يملؤه الوجع ثم أكملت)، أخرجني بقوة، وأنا أترجاه أن يتركني، لم أرى وجهه جيدا آنذاك فقد كان الجو مظلما، أمسك مصباحا مضاء، ووجهه نحوي، وأمسك بيده الأخرى ذراعي، وشدني ورماني بقوة على الأرض، ولحظتها بدأ شابان آخران بالضحك والصراخ، وقال أحدهم:« ستفعل هذا في الظلام، لما لا تدعنا نشاهد قبل أن يحين دورنا»، فأجابه «فلتشعل أضواء السيارة إذا

ولتشاهد»، وفجأة سطع ضوء قوي للغاية في وجهي، فقد كانت أضواء السيارة موجهة إلي تماما، وبعدها رأيت شابان ينظران إلي وهما يصرخان ويضحكان، أما ثالثهم، فقد كان قريبا مني للغاية ينظر إلي نظرة مرعبة، وخبيثة للغاية كلما تذكرتها سرت قشعريرة في جسدي، كنت لحظتها مصدومة ومرعوبة، فبدأت أصرخ بقوة لكنه لم يرأف بي للحظة، لم يرأف بروحي ولا بجسدي الذي لم يبلغ آنذاك الرابعة عشر من عمره، وهكذا مرت تلك الليلة المدمرة من حياتي، تناوب ثلاثتهم على تدمير ما تبقى من روحي ثم رموني مجددا في صندوق السيارة، فأي شعور ذاك الذي انتابني حينها، كنت أتمنى فقط لو أغمض عيناي فأتلاشى، أن أصبح منعدمة الوجود، كنت أحادث نفسي قائلة عودي إلى العدم أرجوك، عودي حيث كنت قبل أن تخلقي وأن توجدي في هذه الحياة، عودي إلى هناك وكوني لا شيء كي لا تتألمي، كي لا تتحطمي وكي لا تصرخي ألما، دون أن يهتم أحد لسماعك، كوني لاشيء فقط كي لا تكوني، ثم فقدت وعيي، وحين استفقت وجدت نفسي مرمية في حديقة منزلي، وبجانبي حقيبتي، لم أفهم شيئا آنذاك، ماذا حدث، ولماذا حدث، وكيف حدث كل هذا بين ليلة وضحاها، كيف للحياة أن تفعل بي هذا، كيف لها أن تقهرني كل هذا القهر بين ليلة وأخرى، أتعلمين مؤلمة جدا هي الأحداث التي تأتي هكذا دون سابق إنذار لتجردنا من كل ما فينا في رمشة عين، فتجعلنا نحادث أنفسنا باستمرار ونحن نتحسر قائلين بالأمس لم أكن هكذا واليوم أصبحت هكذا مستنزفة الطاقة لأقصى الدرجات، متعبة، منهارة، مصدومة وموجوعة، ليتني لم أكن في ذلك المكان، لو لم أكن هناك لما حدث معي هذا، ولكنت بخير الآن، ثم ندري أنه القدر من يفعل بنا هذا، ولن ينفعنا ندمنا ولا اختباءنا، فالقدر يفعل بنا ما يشاء شئنا أم أبينا ذلك، فيحطم في دقيقة ما بنيناه في سنوات وما شقينا في بناءه، وهذا ما فعله بي القدر، رماني جثة روح هامدة في نفس المكان الذي لفظت فيه أمي آخر أنفاسها، فكنت مستلقية على دمائها التي جففتها قسوة الحياة والزمن، وقفت من على الأرض لملمت خيباتي ودخلت منزلي الذي لم يكن سوى خيبتي الأولى، رغبت حين دخلته بتحطيم كل شيء، كنت متعطشة لتفريغ كبتي، فقد كنت أكبت في داخلي كل مشاعر الألم من صدمة وحزن ويأس وكره وغضب ورغبة في التحطيم، فكانت لدي رغبة في أن أحطم كل شيء كما تحطمت أنا، وأن أضغط زناد قلبي فأنفجر وأفجر كل تلك المشاعر التي اختلطت بداخلي، فكادت تصيبني لحظتها بالجنون، فبدأت أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، وأنا أنتحب على ما فعلته بي الحياة رغم أني لم أخطأ يوما في حقها، كنت أفعل ذلك علاً أعصابي التالفة تهدأ قليلا، وعلاً النار المشتعلة في قلبي تنطفئ ولو للحظات قليلة، حتى أتعبني الصراخ كما أتعبتني عائلتي التي تخلت عني وتركتني أخوض معارك الحياة الشرسة وحدي، توقفت عن الصراخ ورحت أسأل نفسي من أنا، ولما أنا موجودة، تبا لي ولنفسي، كرهت نفسي كثيرا لحظتها وشعرت بالاشمئزاز منها، فكنت أضرب نفسي بغضب وكره عارمين وحقا من أنا، عرفت يومها يا زينب أني مجرد نكرة رمتني الحياة في أحد هوامشها المنسية، هامش ملئ بغبار ذكريات مؤلمة، موجعة، فكم أكره ذاكرتي وكم أكره الوجوه التي ارتسمت فيها، وجوه أولئك الوحوش الذين اغتصبوا بقايا روحي، وجه

والدي، ووجه عقاب وحتى وجه أمي بصورته المرعبة تلك، هذا كان الفصل الثاني من حكايتي، أصبحت أرتعب فيه من الأضواء قوية السطوع خاصة حين تضاء فجأة، فأشعر في تلك الأثناء أني أعيش تلك الليلة مجددا، كم هي غريبة الحياة جعلتني أكره الظلام حتى اعتدته وحين اعتدته جعلتني أكره الضوء فما أقسى هذه الحياة وما أيأس العيش فيها يا زينب خاصة حين تضع المرء نصب عينيها، وقد فعلت بي هذا وأشبعتني نفسها بماسيها وآلامها، فجعلت أعماقي هشة للغاية، وكأن صعقة كهربائية أصابت قلبي فاعتصرته وامتصت الحياة منه، لتجعل منه هيكلا عظميا هش، عظامه الذكريات يلامسها شيء من الماضي فتنقشع وتقع أرضا في ساحة ألم، فالماضي لا يرحم ولم يخلق سوى لإيذائنا تماما كما تفعل الحياة التي جعلت الأحزان تتسابق نحوي لتحتضنني والتي جعلتني أحلم في بداية طفولتي ثم حققت كوابيسا في نهايتها، وهكذا هرمت أعماقي واحترقت روحي حتى التفحم بعد أن جلدتني الحياة بسوط من فولاذ، فلم تعد حياة بالنسبة لي بل أصبحت مأساة، وهكذا قضيت بقية سنوات حياتي أو بالأحرى بقية مأساتي اختبأ معظم الوقت في قبو المنزل الذي كان سجني في الطفولة وأصبح ملجئي من نفسي بعد تلك الليلة القاسية، لم أكن قد دخلته بعد رحيل أمي ولو لمرة، وبعد تعرضي لتلك الحادثة لم أجد غيره مكانا للاختباء فكنت اختبأ فيه من الحياة بأمل ألا تحرض القدر علي أكثر من ذلك، واختبأ من والدي كي لا أجهش بالبكاء حين أراه وأستسلم لرغبتي فأطلب منه أن يحتضنني بقوة ولا يفلتني كي لا أضيع في دوامة نفسي، فأنا كنت حينها بحاجة إلى حضن يحويني ليطمئنني أني لست وحيدة، وما أقسى أن تكون أكبر رغبات المرء حضن دافئ يحويه ورغم بساطة حلمه لا يتحقق، وكنت اختبأ من نفسي خوفا من أن تنعكس صورتي في إحدى مرايا المنزل فأرى ذلك الوجه الذي يعكس الخيبات، فقضيت عطلة الشتاء تلك في قبو المنزل بكثير من الكآبة والاكتئاب، كان شكل الحياة في دائري عرفت أنه دائري لأنه روتيني للغاية يشبه أن تركضي باستمرار في دائرة باحثة عن نقطة نهاية، وللأسف ليس للدائرة بداية ولا نهاية فضيع تعبك سدى، أما نوع الحياة هناك فهي قاسية قاحلة وجافة تبللها الدموع تشبه أن تُرْمَيْ لوحدك في صحراء لا أثر للحياة فيها وتجبرين رغم ذلك عي البقاء حية، و الأسوء من ذلك هي ما تطالبك الحياة به، فقد تطالبك في وضع كذاك أن تعيشي دون أهداف فأنت لا تعيشين لنفسك بل تعيشين لها لتعذبك وتتسلى بتعذيبك، فلا تقولي أنك متعبة حتى وإن كسرت كل ضلوع قلبك، فقط تنفسي واصمتي، فأنت لا يحق لك الكلام في وضع مشرق بالظلام واليأس كذاك، أما حجم الحياة يا زينب فلا أعلم عن حجمها ولكن حجم التعاسة عارم فيها ولا وجود لنقطة سعادة، ورغم ذلك لم أكن أخرج من تلك الدوامة المظلمة إلا في بعض الأحيان لاستخدام المطبخ أو الحمام، كنت أقضي نصف وقتي بالدراسة والنصف الآخر في الكتابة فكنت أكتب علني أضيع بين الكلمات فأنسى من أنا، وإذا بي في كل مرة أجد نفسي أكتب عن نفسي فلم أستطع أن أنساها ولا أن أهرب منها، إلا أن انقضت العطلة، وعدت إلى الإعدادية وإلى الإقامة في السكن كعادتي»،

وضعت زينب يدها فوق يد ندى وقالت« ندى أنت قوية للغاية رغم كل ما مررت به لم تفكري بالانتحار ولم ترفعي راية الاستسلام للحياة هذا لأنك لا تكرهين الحياة يا ندى أنت فقط متعبة منها وهي أيضا لا تكرهك هي تكره الجانب الطموح في لا غير ، الجانب الذي لا يأبى الاستسلام، فلو كنت جبانة واستسلمت عند أول موقف لما فعلت الحياة بك هذا، لكنك لست جبانة، أنت شجاعة جدا كنت في كل مرة تقاومين أعاصيرها المحطمة وحدك وتعيدين بناء نفسك من جديد بطموح أن تحظي بما تطمحين إليه، ولسوء حظك الحياة تكره الطموح الذي يسكن أعماق البشر والذي يجعلهم يستعيدون شجاعتهم في كل مرة، وبسببه تجعل الحياة كل إنسان طموح يتخبط فشلا وألما فإن يأس تركته وشأنه، وإن قاوم الفشل وحجب اليأس عن قلبه بالأمل أخذت الحياة عهدا على نفسها بأن تهلكه، ولا بد أن طموحك هو ما جعلك تقاومين كل هذا بشجاعة، فلو لم تكوني طموحة لما خرجت من تلك الخيبة وعدت للدراسة، إذا فما هو هذا الطموح الذي جعلك بكل تلك القوة»

ضحكت ندى باستهزاء وقالت« وهل بقي لي وقت لأطمح»

زينب:« أيعني هذا أنك حققت رغبة الحياة واستسلمت»، ضحكت ندى مجددا وقالت «أستسلم لماذا أيتها المجنونة، أتريدينني أن أحلم خلف القضبان، وأن أوقظ طموحي وأنا لم يبقى لي سوى ساعات من عمري، أنا لا أحقق رغبة الحياة بل رغبة الموت بالذهاب إليه»

زينب:« إذا فقد كان لديك طموح بشيء ما، لا تنكري يا ندى فطموحك لم يمت بعد هو نائم فقط لأنه متعب من السعي».

ندى: «حقا انك غريبة الأطوار بماذا سينفعني إن عاش أو مات، ومع ذلك سأخبرك فأنت تبدين مصرة، في الحقيقة بعد كل خيبة كنت أستيقظ بحلم جديد فقد كنت أحلم في طفولتي بأن أصبح ملاكمة، كان هذا الحلم يكبر معي لسنوات ثم تلاشى، أو ربما رهنته وقتها للحياة لتدعني أعيش بسلام، ألم تقولي أن الحياة تهلك من لا يتخلى عن طموحه»

زينب:« ومع هذا لم تعيشي بسلام لأن الأحلام تأبى الخضوع للواقع، أتعلمين يا ندى أحيانا تجعلنا أحلامنا نخسر كل شيء وفي النهاية لا يتحقق منها شيء»

ندى:« نعم فأحلامنا تجعلنا نراهن بكل ما نملك للحياة لتحققها لنا، فتأخذ منا بالفعل كل شيء، ثم تنظر إلينا كمقامر جشع وتقول، ارحلي ليس لديك شيء عندي، فنرحل بالفعل، نرحل كمفلس أضاع كل شيء في جولة قمار خاسرة، وهنا نصبح فارغين تماما والحياة هي من أفرغتنا»

زينب:« نصبح فارغين من الأحلام والآمال حين نتنازل عن أحلامنا حلما وراء حلم وكل تنازل سببه خيبة أصابتنا إلا أن يصبح حلمنا الوحيد هو راحة البال ولا شيء سواها، فهذه هي الحياة جميلة أحيانا

قليلة، وقاسية أحيانا كثيرة، ولكن ما أثار حيرتي وإعجابي فيك هو أن قسوتها هي ما تقويك وخيباتها هي ما يصنع أحلامك، ولا بد أن قسوة الحياة عليك في فترة مراهقتك جعلتك تصنعين حلما جديدا، وربما هذا الحلم هو أن تصبح مؤلفة أو كاتبة، ولا بد أن ما كتبته في القبو بين جدران الخيبة والألم تلك يستحق أن ينشر»

ندى:« في الحقيقة كنت أكتب لأمزق لا لأؤلف أو لأنشر، كنت أكتب لأفرغ أعماقي فأرتاح قليلا بعد أن أكمل الكتابة حين أرى في أوراقي تلك ماضيَ الذي يستحق أن يحرق، لأراه مجرد أوراق بإمكاني تمزيقها كلما تذكرته، تعلمت هذا من إحدى صديقاتي كانت كلما أزعجها شيء تكتبه في ورقة ثم تمزقها، فكتبت رواية لم تكن ككل الروايات التي يكتبها مؤلفيها من محض خيالهم فتكون ببدايات شاقة ونهايات سعيدة، ولهذا وضعت لها عنوان "واقع فتاة" ، فالواقع دائما شاق ببداياته ونهاياته على عكس الخيال»

زينب:« وهل كان الواقع الذي رويته فيها واقعك »

ندى:« بالطبع، فأكثر الأشياء عمقا وواقعية هي تلك التي نكتبها عن أنفسنا، إذ أن أرواحنا هي التي تكتب فنحن نكتب حين نتألم، فالألم هو ما يصنع الكلمات، وأنا كنت أكتب حين ترغب روحي بذلك ولكن لم أفكر أن أخلد تلك الرواية فأخلد بذلك ألمي مع أني في البداية كنت أظن أني جمعت كل ألمي في تلك الرواية، وكنت أقول قبل كتابتها أني لو كتبت رواية عن حياتي ستتوقف الأقلام السوداء ترحما على سعادتي وستشهد تلك الأوراق عمرا من الصمت المؤلم على قلبي الذي تكدست فيه الأحزان، فكم كنت ساذجة ذلك الوقت حين ظننت أن ما مررت به في فترة ومراهقتي كان كل شيء ولن يحدث معي شيء أسوء منه، ثم همست الحياة في أذني قائلة استعدي أتم الاستعداد يا ندى فهذا ليس كل شيء هذه البداية فقط، بداية هدمي لك،

وبالفعل استمرت في هدمها لي حتى أنهتني، وقد أسعدني ذلك، فما إن انتهت الحياة مني حتى شعرت بارتياح لم أعهده من قبل وكأن هما أزيح من طريقي، فقد انتهت الحياة مني أخيرا، ولم أعد أملك شيئا لأخسره، وهذا أفضل بكثير من أن أكون في بداية الهدم أو منتصفه فأكون جاهلة بمقدار الألم والخسارة التي ستلحق بي»

زينب:« أتعلمين يا ندى، روحك متعبة للغاية، ورغم ذلك هي مرحة، لم أقضي معك سوى بضع ساعات، وعشقت في هذه الساعات روحك المرحة رغم احتراقها حتى التفحم، أحببت بساطتك في النظر إلى الأشياء من حولك، و أظنني حزرت ماذا حل بالرواية، ربما مزقتها بكل براءة لتمزقي بذلك ألمك، أو ربما أحرقتها لتحرقي بذلك ماضيك وتحوليه إلى رماد»

ندى:« فعلت الاثنين معا، فقد مزقتها ثم أحرقتها لأفرغ بعضا من كبتي وألمي ولأحرق ماضيَ وأحوله إلى رماد علَ رياح النسيان تأخذه بعيدا»

زينب:« إذا فقد رغبت بأن تتخلصي بذلك من الماضي ومن ألمه، لو كنت مكانك لما فعلت ذلك فأنا دائما ما كنت أرغب بتخليد ماضيَ في رواية، فأنا أظن أن بهذه الطريقة لن يعود الماضي مؤلما، ولم أكن أعلم أن تمزيقها أو حرقها علاج أيضا»

ندى:« ومن أخبرك أن ذلك علاج، فأنا رغم ذلك لم أتخلص لا من الماضي ولا من ألمه، إذ أنه يصعب التخلص من الألم حين يطول بقاؤه، فالألم هو الجسر الذي إذا أطلنا الوقوف عليه وقعنا في بحر من الأحزان والدموع، أما الماضي فالتخلص منه مستحيل سواء طال أو قصر، لذلك كنت دائما أقول ليت الماضي صندوق قديم مليء بالذكريات، نعود إليه متى أردنا، نمزق منه ما شئنا ونحرق ما يزعجنا، ونحطمه كله إن رغبنا، فنكون نحن من نصنع ماضينا بأنفسنا، لكنه ليس كذلك ولن يكون كذلك، ولهذا يستحيل علينا تحطيم الماضي أو التخلص منه مهما حاولنا»

زينب:« وما يقتلنا يا ندى ليس الماضي بكل ما مضى فما يقتلنا حقا هي تلك الأحداث السيئة التي تأخذ مكانا خاصا في ذاكرتنا وتترسخ فيه بكل تفاصيلها، ثم شيئا فشيئا تستحوذ على كل الذاكرة ولا تترك مجالا للأحداث الجيدة بالعودة بذكرياتها، وتقضي وقتها بدل ذلك في عمل اجتماعات طارئة للأحزان، وأظنك تدرين أن الأحزان حين تبدأ بالاجتماع لن تكفيها غزارة دموعنا ولا رجاء قلوبنا المتعبة لتدعنا وشأننا فهي تطمح دائما بالمزيد، تطمح أن تهشم قلوبنا من شدة تراكماتها، تلك التراكمات التي تسببها بعض المواقف التي توصيها بنا الذاكرة، توصيها بأن تحضر لزيارتنا حين نكون تعساء لتجعلنا أتعس بتذكرها، ولا ترحل إلا وهي حاملة وصيتها بالعودة حين تتأكد من أننا منهارون»

ندى:« تماما كالأحداث التي مررت بها في حياتي، كحادث طفولتي المرعب المنقوش بسكين حادة في ذاكرتي، وكحادث مراهقتي المحطم المدفون في أعماقها، وكحادث شبابي المسجون بين قضبان الذاكرة (ضحكت ندى وأكملت)، لكل محطة من عمري حادث، محظوظة أنا لأني سأموت ولن تمر علي مرحلة الكهولة والشيخوخة، فلو تمران علي سيكون لكل منهما حادث»

زينب:« حقا إن مرحك عجيب تتحدثين عن أقسى آلامك بمرح»

ندى:« إذا بما أنك تحبين مرحي المتعب، سأحاول أن أكمل لك بمرح آخر فصول حكايتي، والذي لم أضع له عنوانا بعد

الفصل الثالث:

أخبرتك أنني قضيت معظم عطلة الشتاء في قبو المنزل بعد تلك الحادثة، سألني والدي مرة لما أتردد كثيرا على القبو فأربكني سؤاله جدا، فنحن لا نتحدث مع بعض سوى بأحاديث مختصرة أغلبها عن مصاريف ومستحقات الدراسة، فبدى لي سؤاله في تلك المرة خاصا نوعا ما ومربكا أيضا، فأجبته مرتبكة بأكثر من إجابة، وقلت بأنني سأتخرج هذا العام من الإعدادية وقد وجدت الدراسة في القبو جيدة من أجل التحضير للامتحانات، وقلت أيضا أني أكره البقاء في المنزل حين يكون صديقه عقاب وغيره من الأصدقاء هناك، فقد كان عقاب في تلك الأيام يزور والدي بكثرة، لكن لم تكن أي من تلك الإجابات صحيحة، فالقبو ليس مكانا للدراسة، أما عقاب فلم يعد وجوده يعنيني وقتها بعد تلك الحادثة، كنت أكرهه وفي نفس الوقت لا أعير لوجوده أي اهتمام ولا حتى أنتبه لتواجده أحيانا، صدق أبي ما قلته أو ربما لم يهتم لسماع ما سأقوله، فهو اعتاد على الأمر ولم يسألني بعدها»

زينب:« لما لم تحاولي إخبار والدك عن تلك الحادثة، ربما ساعدك لتتجاوزيها، فأنت في النهاية ابنته، صحيح أنه سيء الطباع في كثير من الأشياء، إضافة إلا أنه قاتل، ولكنه يبقى أبا»

ندى:« إنه قاتل قبل وبعد كل شيء، لقد قتل أمي بدم بارد، ولم يحرك يتمي ضميره، فهل يحركه حادث كذاك، إضافة إلا أني كنت دائمة الخوف منه رغم حاجتي إليه، فحتى حين أكون بحاجة للمال أتردد مئة مرة قبل أن أطلب منه، وحاجتي له لم تكن مادية فقط، فأنا كنت بحاجة إليه كأب يساندني بعد تلك الحادثة، وكنت أرغب أن أنسى كل ما فعله بأمي وأحتضنه بقوة، فمشاعرنا تجرفنا دائما نحو ارتكاب الحماقات واستنادي به كان سيكون أكبر حماقة سأرتكبها حينها، ولكن وجه أمي لم يفارقني للحظة في تلك الأيام وهذا ما كان يمنعني ويخيفني في آن واحد، ويزيد من ألمي أيضا، ولهذا قمت بترميم نفسي بنفسي وعدت إلى الإعدادية، وكما قلت أنت بعد كل خيبة يولد حلم جديد، ولهذا عدت أحمل بين ضلوع قلبي المنكسرة حلما جديدا، وهو أن أصبح محامية، فيا لسذاجتي أرسم أحلاما وسط الخراب، وأنا في واقعي لا أستطيع حتى أن أنام لأحلم بها»

زينب:« ألم أخبرك أنك شجاعة لا تعرفين معنى الاستسلام، وأنت بأحلامك هذه تستفزين الحياة»

ندى:« إذا دعينا من الأحلام، فحتى أنا لم أعد أطيق الحديث عنها، فهي لم تعد تتحقق كما في الماضي بالجد وعدم الاستسلام، فقد أصبحت الكوابيس هي من تتحقق بذلك، ولنعد إلى الواقع، تخرجت من الإعدادية في ذلك العام ودخلت الثانوية، بقيت على نفس الحال أقيم في السكن وأعود في عطل الأسبوع إلى المنزل، وهكذا مرت ثلاث سنوات من دراستي في الثانوية، كانت سنوات سريعة المضي، أسرعت بي إلى اجتياز امتحان البكالوريا، فاجتزته بحلم أن أدخل الجامعة وأتخرج محامية بعد سنوات، ولكني لو أوفق في اجتيازه رغم أني أجهدت نفسي بالدراسة، فقد كنت أعلم أن البعد والانشغال ينسينا بعضا من آلامنا ليس بصفة نهائية، ولكن الانشغال يجعلنا نتناساها، لذلك كنت أشغل نفسي بالدراسة في لياليا الطويلة، ورغم هذا لم أنجح ليس لمرة أو مرتان بل لثلاث مرات في ثلاث سنوات متتالية، وبعد ثلاث محاولات باءت بالفشل شعرت باليأس تجاه النجاح، وأيقنت أن الحياة وضعتني نصب عينيها ولن تدعني وشأني، بلغت الواحد والعشرين من عمري من هم في سني تخرجوا، وأنا لا زلت عند تلك النقطة في كل مرة أقفز أقع مجددا فيها، وحين عرف والدي بهذا صرخ في وجهي بغضب شديد قائلا "كم مرة ستجتازين هذا الامتحان أم أنك ستقضين كل عمرك في اجتيازه، اللعنة، لقد ذهب كل ما دفعته على دراستك سدى أيتها الفاشلة تشبهين أمك الغبية في كل شيء، غبائكما لا يطاق"،

قتل أمي ثم نعتها بالغبية، لم أستطع تمالك نفسي حين سمعته يقول عنها ذلك، فنظرت إلى عينيه وقلت " أتنعت أمي بالغبية بعد أن قتلتها لترمي بنفسك في أحضان عشيقاتك"، فصفعني بقوة ثم صرخ قائلا "

هل جننت، هل أفقدك الفشل عقلك، كيف تجرئين على التحدث معي بهذه الطريقة، أمك غبية وغباءها هو من تسبب بموتها، ولا بد أن تموتي أيضا بسبب غبائك يوما ما " ،

قلت " أيعني هذا أنك ستقتلني كما قتلت أمي "،

قال " أصمتي وأغربي عن وجهي قبل أن أفقد أعصابي " ،

صعدت إلى غرفتي، دخلتها وأغلقت الباب ثم بدأت أمعن النظر في كل جوانبها وأركانها وأنا أشعر بفشلي وبخيبتي منقوشة على جدرانها، بدا سقفها وكأنه يمطر يأسا وأرضها تجذبني نحو مركز الحزن، فبدأت التحدث إلى نفسي بغضب وألم وحسرة وأنا أقول " لا أزال هنا، لا أزال في هذه الغرفة بعد إحدى عشرة عاما من رحيل أمي، لازلت هنا أعيش نفس الألم، لماذا أنا، لما اختارتني الحياة لتفعل بي هذا "،

كرهت حياتي في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى وأدركت حينها أن أملي الذي كان يشع في البعيد، أصبح ألما جديدا قريبا مني حد الالتصاق، فشعرت بالشقة على نفسي وبالكره تجاهها ولم أعد أتحمل وجودي، كنت أتذكر كيف كنت أحلم بأن أتخرج وأصبح محامية ناجحة فينسيني نجاحي بعضا من ألم ماضيَ ويشغلني عن تذكره ثم أدري أنني لم أنجح ولن أنجح وأنني فشلت وتلاشى آخر أمل لي فرغبت بشدة وبحاجة غلى أن أتلاشى معه، رفعت رأسي ونظرت مجددا إلى السقف وتخيلت نفسي معلقة ألفظ آخر أنفاسي وآخر أحزاني وخيباتي في تلك الغرفة، كنت مخطأة يا زينب حين قلت أنني قوية وشجاعة لأني لم أحاول يوما الانتحار، لم أكن كما توقعت فقد كنت يومها فاشلة ويائسة، ضعيفة جدا وجبانة، أحضرت حبلا وربطته في مصباح الغرفة ظنا مني وبكل سذاجة أنني سأقتل نفسي لأنهي مأساتي، ربما نسيت للحظة أن الحياة تعهدت لي بالأسوء والأسوء بكثير، فقد تعهدت أن تمتص كل طاقتي حتى تفرغني ولن تتركني رغم ذلك أموت بسلام كما لم تتركني أعيش بسلام، ربطت الحبل بقوة كمن يجهز رحاله للسفر رغبة مني أن أرحل بلا عودة، قمت بلفه حول رقبتي ودفعت الكرسي بقدمي, تركت نفسي لتلقى مصيرها، كنت أبتسم بسعادة وكأنني وجدت الحل أخيرا لمعضلات حياتي، وما إن بدأت أشعر بالاختناق حتى وقع مصباح الغرفة أرضا ووقع معه الحبل، وربما وقع معهما آنذاك حلمي الأخير بقبر يضمني، كان الحبل مربوطا بإحكام والمصباح مثبت بقوة في سلك الكهرباء الخارج من السقف، فلماذا وقع، هل لأن الموت لم يرغب بلقائي إن لم تصادق الحياة على رحيلي وهي التي تريدني أن أموت قهرا، ألم يكفيها قهري آنذاك الذي من شدته أصبحت أبتسم للموت، لكن الموت لم يكن حقا يرغب بي وقتها فقد وقفت وأعدت الكرة مجددا لكني لم أفلح فجلست لساعات من دون فعل شيء ومن دون التفكير في شيء ثم خطرت ببالي فكرة شرب كل علب الأدوية الموجودة في المنزل، فيتسبب تفاعلها في توقف نبضات قلبي، لم أجد في المطبخ سوى مسكنات الألم وفي علبة الإسعاف لم أجد سوى الضمادات، كدت أفقد عقلي لحظتها لو لم أتذكر أن والدي يحتفظ بأدويته في غرفته، فقد كان

يعاني من ارتفاع ضغط الدم المفاجئ و تسارع نبضات القلب، دخلت غرفة والدي أبحث عن الموت وأرغب فيه بشدة ولم أتوقع للحظة أنني سأخرج منها قاتلة، كنت أبحث بين الرفوف وإذا بي أجد صندوقا ظننته للوهلة الأولى ذاك الذي بسببه دفع والدي بأمي من على الشرفة، فارتعش جسدي وسرت قشعريرة في كل أنحاءه، ثم انتبهت إلى لونه المغاير، فأدركت أنه ليس نفس الصندوق ولكن يشبهه، حاولت فتحه فوجدته مغلقا بمفتاح، أعدته إلى مكانه ورحت أبحث عن المفتاح، ونسيت لحظتها سبب تواجدي في غرفة والدي، وتوقفت عن بحثي عن الأدوية حين رأيت ذلك الصندوق فقد ذكرني أن سبب موت أمي كان صندوقا مثله وبأنني لسنوات لم أتساءل ولو لمرة ماذا كان داخل ذاك الصندوق ....،

وفجأة انتبهت لصوت خطوات قادم باتجاه الغرفة، فارتجفت قدماي خوفا، علمت أن والدي عاد إلى المنزل ولا بد أنه قام بركن سيارته في الخارج لذا لم أنتبه لعودته، لم يكن لدي وقت كافي للخروج من الغرفة، فأسرعت إلى الشرفة واختبأت خلف الستار، اختبأت من أبي ومن طيف أمي الذي كان يحوم في تلك الشرفة، فطالما كنت أتخيلها واقفة هناك، دخل والدي الغرفة وبرفقته عقاب وملامح السعادة بادية على وجهيهما، وصوت ضحكهما يعلو الغرفة، وضع عقاب حقيبة سوداء على الطاولة وفتحها، فبدت لي مملوءة بالمال، ثم ضرب كفه بكف والدي وهما يضحكان، أما أنا فكنت أرتجف من الخوف ودقات قلبي تتسارع خشية أن يكتشفا وجودي في الغرفة، فأغلقت فمي بيدي كي لا يسمع صوت أنفاسي، وأنا أستمع إلى حديثهما عن ذاك المال الذي ربحاه في مقامرة في إحدى نوادي عقاب الليلة، وعرفت من كلام عقاب وهو يشكر والدي بأنه يربح منذ سنوات بفضل براعة والدي في اللعب، فأدركت بأنه يقامر منذ سنوات، وربما لهذا السبب كانت أمي تتشاجر معه باستمرار، لم أستغرب أبدا حين عرفت بأنه لاعب قمار لأني رأيته وهو يحضر عشيقاته إلى المنزل ودائما ما كنت أراقبه وهو يستشق تلك البودرة البيضاء والتي عرفت فيما بعد أنها مخذرات ولهذا لم أستغرب أن يكون مقامرا أيضا، ولكن ما صدمني تلك الليلة هو الحديث الذي دار بينهما، والذي جعلني أكتشف أن والدي ليس مجرد مقامر وزير نساء، فقد عرفت أن ما كان عليه قد فاق كل توقعاتي، فبعد أن شكر عقاب والدي على ربحه للمال بدأ حديثهما الجدي،

قال والدي:« لا تشكرني يا عقاب فأنا لا أفعل هذا من أجلك بل من أجلي، أنت تعلم أني مدمن على لعب القمار، وأني أقامر لأتسلى لا لأجني المال، والآن سأذهب لأحضر شيئا نشربه»

خرج والدي من الغرفة، فأخرج عقاب هاتفه من جيبه ، اتصل بأحدهم، وبدأ حديثه على الهاتف قائلا:« مرحبا صديقي، كيف حالك لقد ربحت هذه الجولة أيضا بفضل الأحمق حسَان، وكعادته لم يأخذ شيئا من المال، إنه مبلغ كبير وسأحتاج لمساعدتك لوضعه في حسابي البنكي، وسأدفع لك كالعادة أو ربما أدفع لك أكثر هذه المرة إن سارعت في عملك» ثم أغلق الخط بعد أن سمع جواب الشخص الآخر على

الهاتف ورد عليه قائلا:« حسنا، سنلتقي هناك، إلى اللقاء»، كان عقاب يقصد بالأحمق حسَان والدي، فهذا هو اسمه، وربما كان معه حق فهو أحمق إذ أنه كان كلبا وفيا لعقاب الذي لا يعرف معنى الوفاء، ينادي أي شخص "بصديقي" حين يحتاجه، وينعته "بالأحمق" حين تنتهي مصلحته، عاد والدي إلى الغرفة وضع المشروب على الطاولة وقال:« عقاب علينا إيجاد حل لذلك الموضوع في أسرع وقت»، رد عقاب من دون أن يحرك نظره عن الحقيبة المملوءة بالمال « أي موضوع تقصد»

والدي: «أقصد موضوع ابنتي ندى. ولحظتها تجمد الدم في عروقي، ثم أكمل حديثه قائلا: «فهو الموضوع الوحيد الذي يشغل تفكيري، تعرف أنني قتلت أمها وقد ظلت صامتة لسنوات أما اليوم فقد نظرت في عينيا من دون خوف وقالت أني قاتل أمها، لقد كبرت الآن ولم تعد طفلة كما ورثت عناد أمها التي لم تدعني وشأني حتى قتلتها ».

عقاب:« أقتلها إذا مادام هذا كل ما يشغل تفكيرك لقد أصبحت هذه الفتاة مصدر خوف لك كما كانت أمها، ألم أخبرك وقتها أن ترسلها حيث أرسلت أمها حتى لا تصل إلى هذا الموقف، كنت أعلم أنه يوما ما سيحدث هذا ولهذا قلت لك أن تقتلها يا حسان لكنك رفضت. و أرسلتها للدراسة بعيدا عنك مع أنك كنت تشك بأنها رأتك تدفع أمها من الشرفة».

والدي:« أنت تعلم أني لم أقتلها لأن الشرطة كانت ستفتح تحقيقا في ذلك ويشكون أنني قتلت أمها ثم قتلتها فموتهما في مدة متقاربة سيبدو مفتعلا».

عقاب:« لقد أخبرتك أن تجعل موتها يبدوا حادثا، وذلك بإضرام النار في المنزل عن طريق غاز المطبخ، وتغادر المنزل وهكذا ستعتقد الشرطة أنها كانت تحاول الطهي فأشعلت النار بسبب عدم معرفتها بأمور المطبخ، وقلت لك لمرات عدة أن لدي الكثير من المعارف في قطاع الأمن، فحتى إن شكت فيك الشرطة يمكنني شراء شكوكهم، فهذا زمن المال وبالمال فقط يمكنك شراء كل شيء ولكنك لم توافق على خطتي»

والدي:« لم أوافق وقتها لأني لم أكن متأكدا من رؤيتها لي وأنا أدفع والدتها، فهي لم تقل شيئا ولما طالت مدة صمتها ظننتها لم ترني وأن شكي ليس في محله، ثم إني لست سيئا لدرجة أن أقتل ابنتي التي لم تتجاوز آنذاك العاشرة من عمرها»

عقاب:« الآن أصبحت تسميها ابنتك أين كانت أبوتك حين قتلت أمها أمام عينيها، ألم تستطع فعل ذلك بعيدا عن ناظريها»

والدي:« عقاب، أنت تعرف أني لم أكن لأقتل والدتها لولا عنادها فقد اتصلت بي لتخبرني أنها وجدت صندوقا مليئا بالمخذرات في المنزل، وكانت ستخبر الشرطة فورا لأنها ضاقت ذرعا بتصرفاتي ومن

حسن حظي وحظك أني كنت قريبا من المنزل وقتها، ثم إني اتصلت بك وكنت أحادثك على الهاتف وأنا أدخل المنزل لتنصحني ماذا أفعل فأخبرتني أن أسكتها بأي طريقة حتى لو كان بإنهاء حياتها»

عقاب:« لو انتبهت وقتها على ذلك الصندوق وحملت مفتاحه معك لما عرفت زوجتك بما يحتويه ولما قتلتها، صحيح أني أمرتك بقتلها ولكن بعيدا عن الأنظار وليس في حضور ابنتك، ولكنك كنت متسرعا جدا وقتها وهذا سبب خوفك الآن، ولكن من ماذا أنت خائف، هل تعتقد أنها ستخبر الشرطة عن رؤيتها لك تدفع والدتها من الشرفة قبل إحدى عشرة عاما، لا تكن غبيا يا حسان فهي لا تملك أي دليل ملموس على ذلك، والشرطة لن تصدق ادعاءها، وحتى إن صدقت الشرطة هذا وشكت فيك بإمكانك القول أن عدم نجاحها في اجتياز الامتحان لثلاث مرات متتالية جعلها تفقد أعصابها خاصة وأن وضعها النفسي ليس سويا منذ سنوات فرؤيتها لأمها تقع من الشرفة جعلها فتاة منعزلة وانطوائية وأن ادعاءها كان سببه غضبها منك بسبب صراخك عليها لأنها فشلت في الامتحان»

والدي:« هذا ليس كل ما يخيفني، فما يخيفني أكثر هو قولها أنني قتلت أمها لأمي بنفسي في أحضان عشيقاتي، أنا خائف أن تكون على علم بحقيقة عملنا فربما كانت تراقبنا من دون أن ندري»

عقاب:« أيها الأحمق لم تخبرني في الصباح بأنها قالت هذا، كلما أخبرتني به هو أنها رأتك تدفع والدتها من الشرفة، حقا إنك غبي بالطبع كانت تراقبنا وإلا كيف ستعرف أن لديك عشيقات، وبما أنها تعرف هذا فلا بد أنها تعرف أمورا أخري من شأنها أن تهدم كل ما قمت ببناءه وأنا لن أسمح بذلك»

والدي:« أنت لم تبني شيء بمفردك، فأنا بنيت معك إمبراطوريتك حجرا بحجر فكل ما صنعته كان بفضل مال القمار الذي أربحه دون أن اخذ شيئا طول تلك السنوات»

عقاب:« وأنا لم أنكر هذا وأعلم أنه بفضل براعتك في لعب القمار ربحنا أموالا طائلة على مدى سنوات وبفضل تلك الأموال قمنا بتأسيس منظمتنا ولكن لا تنسى أنك مدمن على لعب القمار ومدمن على كل ما تقدمه لك نواديا من نساء و مخذرات لهذا أنت تقامر من أجلي فأنت تفعل هذا لتحصل في المقابل على المتعة والتسلية التي أقدمها لك، ولست تقامر لتربحني فقط ولا تنسى أيضا أنني أعرض عليك منذ سنوات أن تأخذ نصف المال الذي نربحه بعد كل جولة، لكنك ترفض أخذه خوفا من الشرطة، فأنت دائم الخوف من الشرطة بعد قتلك لزوجتك وتظل مرعوبا من فكرة دخولك السجن، والآن دعنا من كل هذا ولنفكر في حل لمشكلتنا، فابنتك أصبحت عائقا في طريقنا، وبما أنها نطقت بعد سنوات من الصمت فهي لن تصمت بعد الآن وأصبح من واجبك أن تسكتها»

والدي:« وكيف لي أن أسكتها، أتريدني أن أقتلها كما قتلت أمها، أتظنني قاتلا متسللا أرتكب جريمة تلو الأخرى»

عقاب:« وهل من طريقة غير هذه لتصمت برأيك، أظن أن عليك العودة إلى الخطة التي رسمتها أنا قبل إحدى عشر عاما وتقتلها بطريقة تبدوا وكأنها حادث، وأفضل طريقة هي إضرام النار في المنزل »

والدي:« خطتك كانت تنفع لقتل طفلة في العاشرة أما الآن فهي لم تعد تنفع لأنها كبرت وبإمكانها إنقاذ نفسها، إضافة إلى أنها تقضي معظم وقتها جالسة في القبو لا في المنزل»

عقاب:« نسيت أمر القبو تماما، لقد أخبرتني من قبل أنها تعزل نفسها في القبو حين سألتك عن أحوالها، أيعني هذا أنها لا زالت تتواجد بكثرة فيه»

والدي:« نعم، فهي تقضي معظم وقتها في القبو»

عقاب:« وهذا ما نبحث عنه، لقد أصبح الحل موجودا إذا»

والدي:« وما هو الحل»

عقاب:« الحل هو أن نضرم النار في القبو حين تكون متواجدة فيه وهكذا لن تستطيع إنقاذ نفسها، فالقبو غرفة واحدة وستختنق بداخله ولن تستطيع الهرب إلى أي مكان حين يكون مغلقا من الخارج»

والدي:« أي فكرة غبية هذه، ماذا سنخبر الشرطة، أي سبب جعل النار تشتعل من تلقاء نفسها، يستحيل أن يبدوا الأمر حادثا إن أشعلناها نحن وأغلقنا الباب من الخارج»

عقاب:« لا أعلم، لا بد أن نجد طريقة لنجعل الأمر يبدوا حادثا»

والدي:« دعنا من هذه الفكرة إنها محفوفة بالمخاطر وبإمكان خطأ صغير أن يزج بنا في السجن، لدي فكرة أخرى ستكون أسهل من هذه بكثير ولن تكون خطرة ولا صعبة علينا»

كنت في وضع نفسي أكثر سوء بكثير من وضعي اليائس حين كنت أجهز حبل المشنقة لنفسي، أستمع لكلام والدي وعقاب وأنا أشعر بالأرض تلف وتدور بي في دوامة من الصدمة والقهر، حقدت في تلك اللحظة على كل العالم، وتمنيت لو كنت أي شخص آخر ما عداي،

وقف والدي وسار إلى الدرج فتحه وأخرج منه ذلك الصندوق الذي بسببه بقيت في الغرفة وسمعت ذاك الحديث، كرهته لحظتها كما كرهت ذاك الصندوق الذي بسببه خسرت أمي، جلس والدي بجانب عقاب، وأخرج من جيب سترته مفتاحا صغيرا، أدركت حين رأيته أنه المفتاح الذي كنت أبحث عنه، فتح الصندوق ووضعه على الطاولة وأخرج منه أشياء بدت لي في البداية أنها أوراق صغيرة، وحين أمعنت النظر من وراء زجاج باب الشرفة عرفت من شكلها وسمكها أنها صور، أمسكها وقال « بما أننا ربحنا في هذه الجولة أيضا فقد حان الوقت لننفذ خطتنا الكبيرة، هذه صور الفتيات وخلف كل صورة كتبت

عنوان منزل الفتاة، ثم وضع الصور على الطاولة فأخذها عقاب، أمعن النظر في أول صورة بدهشة ثم قال «أليست هذه صورة ابنتك» ثم قلبها وقال بعد أن قرأ ما خلفها «وهذا عنوان منزلك، أيعني هذا...» فقاطعه والدي قائلا «نعم ما تفكر به صحيح، لقد أضفت صورتها هذا الصباح لألجأ إلى هذا الحل أن لم أجد غيره، وأنا لن أجد أفضل من هذا الحل لأبعد شكوك الشرطة عني، فبما أننا سنخطف عددا كبيرا من الفتيات سنجعل ندى من بينهن وستلقى نفس مصيرهن، وهكذا لن تشك الشرطة في شيء، فقد قضيت أشهرا في جمع المعلومات عن هؤلاء الفتيات، وبإمكانك القول أنني اخترت الفرائس الأسهل، أي فتيات الطبقة الفقيرة واللاتي لن تكلف الشرطة عناء البحث عنهن لأكثر من يوم، وسنخطف كل شهر أو شهرين فتاة كي لا تشك الشرطة أن منظمة ما تورطت في خطفهن، وهكذا لن تطول مدة التحقيق في قضاياهم، وأول فتاة ستختطف هي ابنتي ندى، وستكون من بين الفتيات اللاتي سينقلن إلى مناطق بعيدة عن هنا فأنا لا أريد رؤية ابنتي على ذاك الحال في احدي النوادي التي أرتادها»

عقاب:« يا لغرابتك وحقارتك مازلت تُسميها ابنتك بعد أن قررت لها مصيرا كذاك، أنت ستحول ابنتك إلى مجرد سلعة تؤجر لأي رجل يدخل النادي وبأي ثمن، أظن أن فكرتي كانت أفضل من فكرتك، ولكن لا علينا سننفذ خطتك، رغم أني لم أتوقع أن نبدأ باختطاف الفتيات بهذه السرعة مع أني أخبرتك بأننا سننفذ خطتنا بعد جولة الليلة لكني ظننتك لا تزال تجمع المعلومات، فأنت لم تخبرني من قبل أنك أكملت هذا»

والدي:« لأن هذا لم يكن صعبا على الإطلاق فقد اخترت من كل منطقة فتاة من عائلة فقيرة فأنت دائما ما تقول أننا بالمال فقط نشتري كل شيء، ومن لا يملك المال لن يستطيع شراء حرية ابنته بعد أن نقيدها نحن»

لن أخبرك عن شعوري يا زينب وأنا أستمع إلى تلك الكلمات التي تؤلم أكثر من سكين يخترق أحشائي، فبعض الكلمات تعمل عمل الطعنات المفاجئة إذ يمكن لكلمة أن تخترق قلوبنا لتجعلها تنزف ألما، لن أخبرك لأني قلت بأني سأكمل لك هذا الفصل بمرح وشعوري آنذاك بعيد كل البعد عن المرح، فقد أدركت أن والدي وعقاب كانا يديران منظمة تقوم باختطاف الفتيات وإجبارهن على العمل في النوادي لتجني من خلالهن المال ويقومون بإرسال بعضهن إلى مناطق بعيدة ربما ليستحيل العثور عليهن و الأسوء من هذا هو أنني كنت سأصبح إحدى تلك الفتيات بل والأولى على القائمة»

زينب:« إن هذا أفظع فصول حكايتك، لا أصدق أي نوع من البشر هذا الذي يفعل بابنته هكذا»

ندى:« إنه النوع الذي لا يملك ضميرا، وهو شخص أناني للغاية لا تهمه سوى مصلحته ومستعد لتدمير حياة أي شخص من أجلها، ولا يهمه إن عاش على حساب تعاسة غيره أو حتى إن عاش على حساب موته كل ما يهمه هو أن يحصل على ما يرغب به، قلبه ميت من ناحيتي، فبعد أن قررا اختطافي هو

وعقاب قال «أنا انتهى عملي بإكمالي جمع الصور والمعلومات، والآن حان الوقت لتبدأ أنت ورجالك العمل»، ووقف وسار باتجاه باب الغرفة قائلا «سأذهب لإحضار شيء نأكله فأنا لم أتناول شيئا منذ الصباح» وخرج من الغرفة، ظل عقاب شاردا للحظات ثم أخرج هاتفه من جيبه، واتصل بأحدهم، ثم وقف من مكانه وسار بخطواته تجاهي وهو ينتظر الرد، كنت أرتجف بشدة خوفا من أن يخرج إلى الشرفة ليتحدث على الهاتف هناك، وبالفعل أكمل سيره حتى خرج إلى الشرفة، ووقف قريبا مني من حسن حظي وقتها أن الستار كان طويلا فغطاني بالكامل، رد الشخص الآخر على المكالمة، فقال عقاب «لماذا تأخرت في الرد»، لم أكن أسمع ما يقوله الشخص الآخر على الهاتف، لكن كلام عقاب وحده كان كافيا لأكتشف شيئا جعل مني قاتلة بعد لحظات، قال عقاب على الهاتف «سأكلفك بمهمة، أتتذكر تلك الفتاة التي طلبت منك اختطافها قبل حوالي ست سنوات، نعم ابنة حسَان سنختطفها مرة أخرى ولكن هذه المرة لسبب آخر، سنضمها لفتيات النوادي، لا لم يتسبب لي حسَان بأي خسارة منذ ذلك الحين وحتى لو تسبب لي بذلك فأنا لن أفكر مجددا باختطاف ابنته لأنتقم منه فهي لا تعنيه على الإطلاق وربما كنت مخطئا باختطاف ابنته وقتها فقد ظننت بعد أن تسبب لي بخسارة تلك الجولة بسبب سكره أن اختطاف ابنته سيكون أفضل انتقام لي منه، ولكنه لم يدرى حتى بأنها اختطفت فقد سألته بعدها بأيام عن أحوال ابنته كي أفهم إن كان على علم بما حدث معها فأجابني وقتها بأنها انطوائية وتعزل نفسها في القبو ولم يقل غير ذلك، ففهمت حينها أنه لم يكن على علم بأمر اختطافها فهي لم تخبره، وحتى لو علم بذلك فلم يكن ليحدث هذا فارقا معه، والآن دعنا من الحقير حسَان وجهز نفسك لتنفيذ المهمة، سأرسل لك صورة الفتاة فقد كبرت الآن وتغير شكلها عن السابق وعنوان المنزل هو نفسه وأظنك تتذكره ومع ذلك سأرسله لك على هاتفك مع الصورة، ستخطفها في الغد وسأخبرك بعدها بما عليك فعله»، أنهى عقاب المكالمة وبعد لحظات عاد والدي إلى الغرفة، وضع الطعام على الطاولة وخرج هو الآخر إلى الشرفة، قال عقاب «لقد اتصلت بأحد رجالي وسيقوم بأول عملية اختطاف في الغد، سأذهب الآن إلى منزلي فأنا متعب وأريد أن أرتاح»، جمع الصور ووضعها في جيبه، وقال «سآخذ الصور، أما المال فسأتركه بحوزتك حتى الغد، فقد تأخر الوقت كثيرا وأخاف أن يعترض طريقي قطاع الطرق، لا تخف سأعود باكرا لأخذه»، خرج عقاب ولم يبقى سواي أنا ووالدي في تلك الشرفة اللعينة، شرفة الموت أخذت أمي مني بقسوة ثم جعلتني أعيش في لحظات الماضي بكل مساوئه، فجمعت كل ذكرياتي ولم تترك شيئا قاسيا إلا واستحضرته، وأضافت لي آلاما فوق ألامي تلك بذاك الحاضر القاسي، عرفت في مدة وقوفي في تلك الشرفة سبب قتل والدي لأمي، وسبب اختطافي ومقدار حقارة والدي الذي لم يمنعه شيء من قتلي سوى خوفه من الشرطة، وعرفت أن كل الدمار الذي حل بي كان سببه عقاب وكلبه الوفي حسَان، اختفى خوفي لحظتها مع أن والدي كان واقفا على بعد أقل من متر مني، وتحول كل ذلك الخوف إلى غضب حارق، غضبت من نفسي أولا، غضبت من صمتي وتحملي لكل ما حل بي في تلك السنوات، وحقدت بعدها على والدي وعلى عقاب، لن أستطيع أن

أصف لك ذاك الشعور الذي انتابني لحظتها، كان كل شيء خارجا عن إرادتي، فقدت القدرة على التحكم في نفسي واشتعل في نفسي لهيب الحقد والانتقام، خرجت من وراء الستار واندفعت بقوة تجاه والدي، حدث كل شيء بسرعة حتى أني تعجبت بعدها من نفسي كيف أسقطته أرضا بدفعة واحدة، شعرت أن ذاك الغضب الذي سيطر علي وقتها جعلني قوية للغاية، وقفت للحظات أمعن النظر في والدي الذي أصبح مجرد جثة تسبح في دمائها، فشعرت أني أفرغت نصف غضبي، كان عقاب لا يزال في حديقة المنزل حين دفعت والدي، وكان مصدوما لحظتها، رفع رأسه فوجدني أنظر إلى جثة والدي، ثم نظرت إليه بعيون مشتعلة بالغضب تجاهه، وبعدها نزلت مسرعة وأخذت سكينا من المطبخ بنية أن أقتله، وحين خرجت لم أجده وحتى جثة والدي لم أجدها ولكني وجدت طريقا من دماءه، تبعته مسرعة، فوجدت عقاب يجر جثة والدي ليدخلها القبو وهو يتحدث معه قائلا «لا تمت أرجوك إن مت سأخسر كل شيء، أين سأجد شخصا ببراعتك، عليك أن تعيش من أجلي أيها اللعين»، ودخل بجثته القبو، كان يرغب بإغلاق الباب، ولكني كنت أسرع منه لأن جثة والدي كانت تعيق حركاته، ولكنه كان يريد إنقاذه رغم أنه مجرد جثة لأنه لم يستطع استيعاب فكرة خسارته فهو ورقته الرابحة في كل جولة قمار، إذ أنه لم يخسر سوى مرة واحدة في حياته لأنه كان في حالة سكر، وأنا من دفعت ثمن خسارته، فهذا ما اعترف به عقاب وهذا بالضبط ما جعلني أندفع تجاهه في غفلة منه على حياته، وأغمس السكين بالقرب من قلبه، وأظنه مات على الفور، وعندها تذكرت كلامه مع والدي وخطته بأن يحرق القبو حين أكون فيه لينهي حياتي، فأحضرت بنزينا وأفرغته عليهما وأشعلت فيهما نار الانتقام التي كانت تحرقني، ولحظتها هدئت وأنا أراقب شرارات النار وهي تتطاير ويتطاير معها غضبي وكل المشاعر الأخرى التي كانت تنتابني وشعرت بالراحة وبالفراغ من كل المشاعر، وأصبت باللاشعور ليتحول ذاك اللاشعور إلى صدمة جديدة فيما بعد، وهو صدمة أني أصبحت قاتلة، هكذا انتقمت لأمي ولنفسي ولقلبي الذي احترق حتى التفحم بإحراق من أحرقوه، هذه هي تفاصيل تلك الليلة أما ما حدث بعدها فأظنك تعرفينه وبهذه التفاصيل التي رويتها لك أصبحت قاتلة وحكم علي بالإعدام فكان ذاك هو الفرج الذي انتظرته منذ سنوات، فالموت هو فرحي الذي قد حان أخيرا»،

ردت زينب والدهشة تعتري وجهها «أنت لست قاتلة، أنت منقذة، لقد أنقذت كل تلك الفتيات فلولا ما فعلتيه لتحطمت حياتهن، كيف لك أن تصمتي كل هذه المدة وترضي بعدها بحكم الإعدام، هل جننت يا ندى، لماذا لم تخبري الشرطة بالحقيقة، أي غباء هذا الذي ارتكبته»

ندى:« أخبرهم بماذا يا زينب؟ وهل أعطوني فرصة لأخبرهم، ألم تقولي أن ما يعرفه عنا الآخرون هو فقط ما يريدون هم أن يعرفوه لهذا فهم يصنعونه بأنفسهم وهذا بالضبط ما حدث معي، فأنا كنت في وضع نفسي مزري بعد أن أدركت ما فعلته وأني أصبحت قاتلة وفعلت بأبي مثلما فعل هو بأمي، كنت مصدومة ولم أقدر على الكلام، أجلسوني وقتها مع شرطية لتستجوبني، وهي لم تكن تسألني عن شيء

بل كانت تخبرني بما فعلته رغم أنه لم يحدث شيء مما كانت تقوله، كان أسلوبها خبيثا للغاية جلست وقالت «ندى، لا بد وأن عقاب حاول الاعتداء عليك لهذا قتلته، أليس كذلك ولا بد أن والدك تجاهلك ولم يحاول الدفاع عنك لهذا قتلته هو الآخر وقمت بإحراق جثتيهما لتخفي دليل ارتكابك للجرم، ندى إن كنت موافقة على أقوالك وقعي هنا»، ثم أمسكت يدي ورفعتها لتضعها على الورقة ووضعت في يدي قلما، فوقعت على أقوالها وليس على أقوالي، وبعد يوم أو يومين فأنا لم أكن أدري كم من الوقت يمر علي هناك أتى رجل وقال أنه المحامي الذي عينته المحكمة من أجلي وقال لي بأن قضيتي صعبة للغاية ووضعي سيء ولن يستطيع فعل شيء من أجلي لأني ارتكبت خطأ فادحا بمحاولة تشويه سمعة رجل شريف ومعروف بادعائي أنه حاول الاعتداء علي، أما في يوم المحاكمة فتغيرت أقوالهم مجددا وليست أقوالي فقد كانوا يتحدثون بلساني، قال القاضي أني قتلت والدي وصديقه عقاب لسرقة أموالهم وأني ارتكبت أكثر من جريمة ولهذا سيدرسون القضية أكثر ليقرروا أي عقوبة أستحق، لم أنكر ما قاله واستسلمت للقدر مثلما استسلمت للموت فقد عرفت حينها أن المال حقا يشتري كل شيء وأن رجال عقاب اشتروا الشرطية والمحامي وحتى القاضي»، أمسكت زينب برأسها و قالت: «يا إلهي لم أتوقع أن تكون الأحداث بكل هذا التعقيد، أظن أني فهمت كل شيء الآن، في البداية جعلتك الشرطية توقعين على أقوالها بأن عقاب حاول الاعتداء عليك ربما لتلصق فيك تهمة أخرى وهي تشويه سمعة عقاب والادعاء كذبا أنه حاول الاعتداء عليك أو ربما لم تكن لديهم طريقة أخرى ليغطوا عن السبب الحقيقي لارتكابك الجرم والذي من شأنه إن أكتشف أن يفكك المنظمة السرية لعقاب، أحد هذين الأسباب هو ما جعل الشرطية التي اشتراها رجال عقاب تدفعك لتوقيع ما قالته وأظن أن السبب الثاني هو الأقرب للصحة فبمجرد أن عرفوا بموت عقاب أسرعوا إلى صناعة أقوالك تلك وأنت في حالة صدمة، فما كان يهمهم لحظتها هو أن يغطوا عن السبب الحقيقي لقتلك عقاب قبل أن تستعيدي توازنك النفسي فقد كانوا يدركون أنك أصبحت تعرفين حقيقته لهذا قتلته، ولم يكن يهمهم لحظتها إن تشوهت سمعته فكل ما كان يهمهم هو إنقاذ منظمتهم وقد فعلوا ذلك بعد لحظات من معرفتهم بخبر موت عقاب، وبعدها اكتشفوا أمر المال الذي كان في غرفة والدك، فغيروا خطتهم الأولى واستعانوا بمحام ولهذا قال المحامي أنك ارتكبت خطأ بمحاولة تشويهك لسمعة عقاب وقد قال المحامي ذلك قبل المحاكمة ليرى رد فعلك وإن كنت ستصمتين كعادتك وتوافقي على ما قالوه أم ستنكرين كل ادعاءاتهم فيما بعد، وصمتك هو ما جعلهم يقولون يوم المحاكمة بأنك قتلت والدك وعقاب من أجل المال وبموافقتك على أقوالهم جعلتهم يضربون عصفورين بحجر واحد حيث أنقذوا عقاب وبذلك أنقذوا سمعة نواديه وألصقوا فيك تهمة أخرى وهي ادعاءك الأول بأنه حاول الاعتداء عليك وبهذا ضمنوا أن عقوبتك ستكون الحكم بالمؤبد أو الإعدام وهذا لارتكابك أكثر من جريمتين وهكذا لن تكوني عائقا أمامهم، أما ما قاله القاضي بأنهم سيدرسون القضية أكثر وبعدها يقررون أي عقوبة تستحقين فهي خدعة أخرى من خدعهم لأنه لو قال بأنه حكم عليك بالإعدام مع أنهم قد قرروا وانتهى، لربما ثرت في المحكمة ورفضت هذا دفاعا عن نفسك لتتجنبي

حكم الإعدام، وهذا ما كان الجميع يتفادى حدوثه، لذا أرسلوك إلى هنا لتوضعي في زنزانة منفردة وبعدها يخبرونك بقرار المحكمة لكي لا تكون لديك أي فرصة للدفاع عن نفسك لهذا سارعت المحكمة في إجراءاتها ولم تتباطئ كعادتها، إذا فقد كانت المشرفة على حق حين قالت بأن معارف عقاب كثيرون ولهذا فاعترافك لن يغير شيئا الآن، فكلانا يعرف أن أتباع عقاب يحومون حولنا في كل مكان بداية من السجن المركزي وصولا إلى ساحة الإعدام، إضافة إلى أن قرار المحكمة قد صدر الآن وعلينا إيجاد حل آخر غير اللجوء إلى المحكمة ولا يوجد حل سوى الهرب من السجن، وأعلم أن هذا صعب ولكن علينا المحاولة وإيجاد خطة ما لذلك»

ندى:« ولماذا ستفعلين هذا؟ بماذا سينفعك هروبي»

زينب:« ما الذي تقصدينه، لماذا أخبرتني بكل هذا إن كنت لا ترغبين بمساعدتي لك»

ندى: «أنا لم أخبرك بهذا لتساعديني فقد فات الأوان ، فقرار المحكمة قد صدر الآن ولا يمكن إلغاءه»

زينب:« لم يفت الأوان بعد، فنحن لن نلجأ إلى المحكمة بل سنهرب من هنا فالطرق القانونية ليست دائما السبيل الأصح، أعلم أننا لن نستطيع كشف حقيقة عقاب الآن فالأدلة احترقت مع جثته ولكن يكفينا أننا نعرف خبايا نواديه لنجمع أدلة أخرى»، ضحكت ندى وقالت:« استفيقي يا صديقتي فهذا ليس فلما تستطيع فيه فتاتان هاربتان من العدالة جمع أدلة تشي بوجود منظمة خطيرة وكشف حقيقة المجرمين من الأثرياء الذين يظنهم الجميع نبلاء، فالواقع عكس هذا تماما وسيفعل بنا الواقع أسوء بكثير مما تتصورين، وأنا ليس لدي الرغبة ولا القدرة بخوض معركة كهذه، فأنا قد أعلنت استسلامي للحياة ولواقعها»

زينب: «أزيلي عنك ستار اليأس هذا، فاليأس لم يخلق لأمثالك فلا هو يليق بك ولا أنت تليقين به، لم يبقى سوى بضع ساعات لانتهاء الليل وسأتحدث بعدها مع مديرة السجن فهي تأتي في الصباح إنها طيبة جدا وستساعدنا حين تعرف أنك ستعدمين ظلما»

ندى: «أظن أن أعصابك أتلفت ولم يبقى فيها شيء، بماذا برأيك ستساعدنا مديرة السجن، بالهرب مثلا، إنها مديرة السجن يا زينب، مديرة السجن وهي لن تسمح حتى لأمها بالهرب منه لأنها وحدها من تتحمل مسؤولية السجينات أمام السلطات»

زينب:« ربما لن لتسمح لأمها بالهرب منه ولكنها ستسمح لصديقتها وصديقة صديقتها بذلك»

ندى:« عن أي صديقات تتحدثين»

زينب:« عني وعنك فمديرة السجن صديقتي، وبما أنك صديقتي فستساعدنا»

ندى:« أتعلمين يا زينب، بصدق نتحدث أحيانا وما أصدق حب من يفهموننا من دون كلمات، فيقرؤون لغة عيوننا وما نقصده بتصرفاتنا، ويهبوننا ما نحتاجه دون طلب منا، فليتك تكونين هكذا وتكون صداقتك لي بهذا الصدق والحب فتهبينني ما أحتاجه دون أن أستمر في طلبه وتفهمي دون أن أخبرك أني وصلت إلى نقطة اللاعودة، فأنا لم أكن أشتهي سوى الموت وها أنا سأحصل عليه، ربما لم يخلق اليأس لي ولكن الألم خلق خصيصا لي لأني كثيرا ما قاومت ولم أيأس ولهذا سأنصحك قبل موتي بألا تقاومي، لا تقاومي يا صديقتي كي لا تتعبك الحياة حد الهلاك»

زينب:« قاومت بالفعل يا ندى ولو أني توقفت يوما عن المقاومة لأهلكت، لذا أرجوك لا ترفعي الراية البيضاء وتعلني استسلامك»

ندى:« أيعني هذا أنك لم تستسلمي ولو لمرة، وكيف إذا تركتك الحياة وشأنك، ألم تخبريني بأن الحياة أخذت عهدا على نفسها بأن تهلك كل من قاومها»

زينب:« ومن أخبرك أنها تركتني وشأني، الحياة لا تترك أي أحد وشأنه ولا تعفي أي أحد من اختباراتها، فتعرضنا جميعا لمواقف مؤلمة جدا وقاسية تجعلنا من خلالها نكرهها، ولهذا ينتحر البعض»

ندى:« وماذا فعلت بك الحياة أكان شيئا سيئا جدا جعلك تتمنين الموت فحاولت الانتحار»

زينب:« لا، أنا لم أفعل، أمي من فعلت ذلك»

ندى:« أتقصدين أن أمك حاولت الانتحار»

زينب: «ليس مجرد محاولة فالمحاولة قد تكون ناجحة أو فاشلة، كان انتحارا على أكمل وجه»

ندى: «أ يعني هذا أنها انتحرت ونجحت في ذلك، ولكن لماذا فعلت ذلك»

زينب:«لأنها أنانية ولم تفكر في لحظة أن موتها سيقتل أحلام طفولتي»

ندى: «إذا فقد فعلت هذا حين كنت طفلة، لا بد وأنها أصبحت غير قادرة على التحمل، وإلا فلم تكن لتتركك لوحدك»

زينب:«وهل أنا لدي القدرة لتحمل رؤيتها معلقة بحبل الموت، أخبرتك أنها أنانية ليس إلا ولم تفكر لحظتها سوى في نفسها»

ندى:«إذا فقد حان الوقت لنستمع إلى قصتك أيتها الحارسة»

زينب:«لا أبدا هذا ليس وقت قصتي، فنحن لم نجد بعد حلا لمعضلتك»

ندى: «أتقصدين أننا لم نتفق على نهاية لقصتي، نهايتها واضحة فقد كتبها القدر لذا لا تشغلي بالك، والآن لم يعد لدي سوى بعض الوقت وأريد أن أستغله في سماع حكايتك لنتعادل»

زينب: «نتعادل في ماذا»

ندى: «سأخبرك فيما بعد، بعد أن أكمل سماع حكايتك»

الفصل الرابع:

زينب:« يبدوا أنك أصبحت فضولية فجأة، حسنا سأختصر لك قصتي، وسأبدأ كما بدأت أنت، سأبدأ بوالديَ، فالوالدين هما من يكتبان قصص أبناءهم إما بحبر من حنان أو بحبر من قسوة، وهما من يصنعان شخصياتهم ويرسمان مستقبلهم، لم يكن زواج والديَ كزواج والديك، لكن النتيجة كانت نفسها، فرغم أن زواجهما كان تقليديا وحصل على رضا القبيلة إلا أن الفشل كان نهايته، كانا تقليديين للغاية، وكحلم أي زوجين تقليديين كان حلمهما إنجاب الكثير من الأبناء الذكور وليس الإناث بالطبع، ولسوء حظهما وحظي كنت ابنتهما الأولى، وعانت أمي بعد إنجابي من مشاكل صحية فلم تستطع الحمل مجددا حتى بلغت أنا السادسة من عمري وظنت أن بحملها الثاني ستنجب ولدا ولكنها أنجبت أختي وصال، فكانت تعيسة بذلك ولكنها لم تيأس ولم تتوقف عن المحاولة، حتى حققت أكثر مما كانت تصبوا إليه وأنجبت أخواي التوأم أنور وأنس، وذلك بعد بلوغ وصال ثلاث سنوات من عمرها، وأنا تسع سنوات، فكانت سعادة والديَ وقتها لا توصف وبدا لهما أنهما تحايلا على القدر الذي وهبهما ابنتان بأن يحصلا على ولدين مرة واحدة، ثم أتت ضربة القدر الصاعقة من حيث لا يدريان، كنت قد أدركت حينها لما لم تفرح أمي بإنجابها لوصال وفرحت بإنجاب أنور وأنس، أدركت أنها امرأة ذكورية ومثلها من النساء هن من يحطمن المجتمع، وهن من يحطمن عائلاتهم فالتفرقة بين الأبناء تجعل القدر يأخذهم ليحرم والديهم منهم سواء بالاغتراب أو بالموت أو بكلاهما، وهذا ما فعله القدر بعائلتنا، فبعد إنجاب أمي لم تعد تهتم بوصال رغم صغر سنها، وأصبحت تحملني مسؤولية رعايتها بينما هي لم تكن تبتعد عن رضيعيها للحظة حتى وهما نائمان، فقد كان حبها لهما بقدر خوفها عليهما، والخوف من المجهول هو ما يجعلنا نعيشه، ولهذا تحققت مخاوف أمي المبالغ فيها وأصبحت حقيقة عاشتها وعايشتنا إياها، فقد توفي أخي أنس بعد تسعة أيام من ولادته، والذي حدد الأطباء لاحقا أن سبب وفاته المفاجئ كان ولادته بعيب خلقي في الدماغ، كانت صدمة أمي كبيرة وكادت تفقد أعصابها خاصة أنه توفي أمام عينيها، لم تصدق ما حدث فكانت تطلب من والدي ألا يدفنه وتقول أنه نائم وسيستيقظ جائعا ولهذا عليها إبقاءه في حضنها لترضعه حين يستيقظ، لم تستطع أمي تعويض خسارتها لأنس سوى بالتقرب أكثر من توأمه فقد كانت تقول أنها تشتم رائحة أنس في أنور، وهذا ما جعلها تحمله طول الوقت بين ذراعيها ولا تضعه من حضنها حتى حين يكون نائما، مرت أربعة أشهر وأمي على هذا الحال، نسيت

وجودي ووجود وصال في حياتها وأسقطت مسؤوليتنا على عاتقها وفي إحدى الليالي كانت أمي متعبة وتشتكي من ألم في رأسها ودوار يصيبها كل ما وقفت من مكانها، فطلب منها والدي أن تنام تلك الليلة بعيدة عن أنور كي لا يجعلها بكاءه تستيقظ كل بضع لحظات، لكنها رفضت بشدة ونامت بجانب أنور ملصقة إياه بحضنها كعادتها، وكعادة كل رضيع استيقظ يبكي جائعا فبدأت بإرضاعه وبينما كانت ترضعه فقدت وعيها واتكأت بثقلها عليه، استعادت أمي وعيها بعد ساعات فوجدته ميتا، كنت نائمة حين سمعت صراخها العالي فاستيقظت مرعوبة وغادرت فراشي مسرعة نحو غرفتها، دخلت الغرفة فوجدت والدي يجهش بالبكاء كطفل صغير وهو يلوم أمي على ما حدث، أما هي فلم تكن لديها القدرة على استيعاب ما حدث فكانت صدمتها مميتة، كانت تلاعب جثة أخي وهي تقول «أنت اشتقت لأنس لهذا تريد أن تذهب»، وظلت تتحدث إليه وهي تبكي وتصرخ أحيانا وتضحك أحيانا أخرى وهي تقول «سآتي معك ونجتمع كلانا مع أنس»، فأمي لم تشفى من خسارة أنس وكل ما كان يصبرها على خسارته هو أنور وحين خسرته هو الآخر أصبح علاجها هو الموت، لم أذهب يومها إلى المدرسة وبقيت أنا ووصال في غرفتنا بأمر من خالتي حتى انتهى العزاء، كنت أطلب منها باستمرار أن تسمح لي بالذهاب إلى أمي لكنها كانت ترفض في كل مرة وتخبرني بأن الوقت غير مناسب لأن أمي متعبة ويجب أن ترتاح، فلم أرها ولم أدري ماذا كان يحدث معها حينها وفي اليوم التالي، خرجت من غرفتي وتوجهت إلى المدرسة بعد أن جهزتني خالتي وأطعمتني، وبعد عودتي من المدرسة وجدت المنزل هادئا عكس ما كان عليه بالأمس ويبدو فارغا عكس ما كان عليه صباح ذاك اليوم، كانت خالتي في المطبخ ووصال تشاهد التلفاز، أما والدي فلم يكن موجودا، ولم أكن قد رأيته هو و أمي منذ لحظة الصدمة تلك، أطعمتنا خالتي وطلبت منا الذهاب للعب في غرفتنا، لعبت وصال حتى تعبت فنامت، أما أنا فكنت أقوم بواجباتي المدرسية وحين أكملتها كان الليل قد حل، فرغبت أن أرى أمي قبل أن أنام فاتجهت إلى غرفتها، فتحت الباب ودخلت بسرعة وأغلقته كي لا تنتبه خالتي التي كانت تنظف وترتب غرفة الجلوس، وحين نظرت باتجاه السرير لم تكن أمي مستلقية كما توقعت رؤيتها، بل كانت معلقة بحبل في مصباح الغرفة، صدمتني رؤيتها وفي تلك اللحظة انقطعت الكهرباء وأصبح الظلام يحيطني من كل جانب، كنت خائفة جدا وشعرت أنني أختنق وأن الخوف هو ما يخنقني، ففقدت وعيي لحظتها وحين استيقظت وجدت نفسي في غرفتي، لم أستوعب في البداية ما حدث، فخرجت من الغرفة لأجد المنزل مليئا بنساء هوايتهن الانتحاب في كل عزاء، سرت باتجاه غرفة والديَ ظنا مني أني سأجد أمي هناك وأن رؤيتي لها بذلك الشكل كان مجرد كابوس واستيقظت منه، وحين اقتربت سمعت صوت خالتي تبكي وهي تقول:« لم تكن ترغب بتناول أي شيء ولا بالحديث مع أي أحد، لم يكن عليَ تركها لوحدها، لو بقيت معها في الغرفة لما حدث هذا، لم تستطع تحمل تأنيب الضمير لهذا انتحرت كل هذا حدث بسبب إلقاء اللوم عليها من قبل زوجها وحماتها، لم يكن عليهما التحدث معها بتلك الطريقة، ها قد دفنت أختي تحت التراب الآن، فلتزوج الحماة ابنتها، أليس هذا ما ترغب به فبدل أن تواسيها صرخت

في وجهها قائلة "سأزوج ابني امرأة قادرة على إنجاب الأولاد ورعايتهم»، فهمت لحظتها أن أمي أصبحت تحت التراب، ولن أراها مجددا، كانت صورتها الوحيدة التي بقيت في ذهني هي رؤيتها معلقة في غرفتها بحبل سرق آخر أنفاسها، واخر كلماتها التي ظلت تجول في خاطري هي رغبتها بالموت لتلحق بإخوتي، مر يوم العزاء كأي يوم سيء ينقش على صخور الذاكرة، فلا يمحيه الزمن، حل الليل فاتجهت إلى غرفتي مع خالتي، كانت تحمل وصال في ذراعها وتحتضنني بذراعها الأخرى فشعرت لحظتها أن حنانها سينقذنا من اليتم، دخلنا الغرفة فوضعت وصال في سريرها واستلقيت أنا في سريري، وما إن أطفأت خالتي المصابيح حتى انتابني نفس ذلك الشعور الذي انتابني لحظة انقطاع الكهرباء في غرفة أمي، صدمة من الخوف والاختناق، صرخت بقوة، فأعادت خالتي إشعال المصابيح ووجدتني أرتعش من الخوف احتضنتني أولا ثم سألتني ماذا حدث فأخبرتها أن الظلام يخنقني احتضنتني بقوة أكبر وقبلتني قائلة "والآن سيختفي الألم"، وابتسمت وفي عيناها بريق من الحزن، فكانت قبلاتها ونظراتها وبريق عينيها وكل شيء فيها يشبه أمي، كانت أمي دائما ما تعالج الجروح بالقبلات وتقول "والآن سيختفي الألم"، ففعلت خالتي مثلها، كي تملأ الفراغ الذي تركته أمي وهي لم تدري لحظتها أن بعض الجروح تكبر معنا ولا تختفي إلا بموتنا، نمت ليلتها في حضن خالتي وفي الصباح حين استيقظت لم أجدها، خرجت من الغرفة فبدا لي المنزل فارغا كجسد بلا روح، سمعت أصوات خافتة قادمة من المطبخ فاتجهت إليه وحين دخلته وجدت جدتي ووالدي يتحدثان وحين رأتني طلبت مني أن أجلس لتناول الإفطار فجلست وأكملا بعد ذلك حديثهما متجاهلين وجودي، قالت جدتي:« لا تشغل بالك، سيعوضك الله بأبناء آخرين، سأزوجك بامرأة تملأ منزلك أولادا وتستطيع الاهتمام بهم، وليس كتلك»، فعلمت لحظتها لما كانت خالتي غاضبة من جدتي، لأنها كانت تعلم أن جدتي استغلت ضعف أمي لمصلحتها وجعلتها تبدوا في نظر والدي امرأة غير قادرة على تحمل مسؤولية أبناءها، ولهذا حملها مسؤولية موت أخي ثم طلقها، وخبأ الأمر عن الجميع هو وجدتي لأنها انتحرت في اليوم الموالي، لأنه لو علمت خالتي بهذا لاتهمتهما لدى الشرطة بأنهما سبب انتحارها»

ندى:« وكيف عرفت أنت بهذا، أتحدثا عن الأمر أمامك»

زينب:«لا، زوجته هي من أخبرتني»

ندى:«زوجة من»

زينب:«زوجة والدي»

ندى:«أيعني هذا أنه تزوج بعد موت أمك مباشرة»

زينب:«لا، ليس تماما، فقد انتظر حوالي ثلاثة أشهر ثم تزوج، فقد ظلت خالتي وجدتي رغم عدم تفاهمهما معنا في المنزل لمدة شهر، وفي تلك المدة بقيت على ذلك الوضع أرتعب من الظلام فأخذتني خالتي لطبيب نفسي، رغم معارضة جدتي لذلك فهي عجوز تقليدية ولا تؤمن بالطب النفسي، فأخبرها الطبيب أنني أصبحت أعاني فوبيا الأماكن المظلمة، وأن الظلام يذكرني بذلك الحادث، حضرت وقتها عدة جلسات للعلاج النفسي ليس من أجل التخلص من ذلك الخوف فهو ليس لديه علاج بل من أجل أن أستعيد ثقتي بنفسي بعد كل ما حدث وقد أخبرني الطبيب مرة بأننا جميعا نمر بمواقف قاسية وصعبة ويمكن لأي شيء كان موجودا أثناء تعرضنا لذلك الموقف أن يذكرنا به ويجعلنا نشعر أننا نعيشه مجددا، ولهذا حين رأيتك ترتعشين خوفا في الرواق المضاء وسمعت الحارسة تقول أن هذا حدث معك فقط لحظة دخولك الرواق، أدركت أن الضوء الساطع ذكرك بحادثة ما، تماما مثل ما يذكرني الظلام بموت أمي.

بعد انقضاء أشهر على تواجد خالتي معنا في المنزل حان وقت مغادرتها، فهي تعمل وتعيش في ألمانيا وكانت قد أتت قبل أيام من وفاة أمي في زيارة قصيرة للعائلة ، لكن موت أمي جعلها تغير رأيها وتبقى معنا لمدة أطول، لكن لم يكن بإمكانها البقاء أكثر، فهي قد تركت عائلتها وعملها لمدة طويلة، ولهذا طلبت من والدي أن يسمح لها بأخذنا معها، لكنه رفض، إلا أن إلحاحها المستمر جعله يغير رأيه ويسمح لها بأخذ وصال فقط لأنها الأصغر والأكثر تعلقا بخالتي بعد وفاة أمي، ولا يوجد من يرعاها أفضل منها ولهذا أخذتها معها وسافرت، فكنت سعيدة من أجل وصال، تعيسة من أجلي، فالقدر يشفق علينا أحيانا فيهدينا شخصا ينقذنا من الغرق واليتم غرق وخالتي كانت منقذة وصال منه، أما أنا فأغرقني والدي وليس يتمي فحسب، فبقيت لشهرين تقريبا أراقب جدتي وغيرها من النساء اللاتي يعشن على حشر أنوفهن في حياة الغير يجهزن لعرس والدي وكانت جدتي سعيدة للغاية بزواجه وفي ليلة العرس أخذتني معها إلى منزلها، قضيت عطلة الأسبوع هناك، ثم أتى والدي واصطحبني إلى المنزل، كان يبدوا سعيدا ومتلهفا لحياته الجديدة، دخلت المنزل فوجدته متغيرا كليا، لم يكن ذلك منزلي، كل ذلك الأثاث الذي كانت تمسحه أمي من الغبار كل يوم لم يعد موجودا، الأريكة التي تستلقي عليها وصال لتشاهد التلفاز فتنام في غالب الأحيان عليها، والطاولة التي تجلس عليها أمي لتقطع الخضر وتجهز الطعام وكل الأشياء التي طبعت عليها لمسات أمي وهمسات أختي وضحكاتها اختفت، وجاءت مكانها امرأة غريبة عني تدعي الحب وتتصنعه أمام والدي وتظهر الغضب والكره بغيابه، فهذا هو واجب كل زوجة أب شريرة وهي لم تكن تقوم سوى بواجبها تجاهي، فكانت تسعد برؤيتي أشقى وتشقى برؤيتي سعيدة حتى أنها كانت تستغل خوفي من الأماكن المظلمة فبعد أن أنام تطفئ أضواء الغرفة لأستيقظ ليلا وأجد نفسي أغرق وسط خوفي، فهي كانت تعيشي على تعذيبي ولن تكفي الساعات ولا الأيام لأروى لك كل تلك المواقف السيئة التي كانت تكيدها لي كل يوم رغم صغر سني، فكانت تشعرني أنها لم

تدخل ذلك المنزل سوى لتعذبني فجعلتني أنظر للمنزل على أنه سجن يأسر أحلامنا، وأدركت أن هناك دائما غرباء يدخلون حياتنا فجأة أو حتى منازلنا ليقلبوا حياتنا رأسا على عقب، فنكون بالنسبة لهم مواقف عابرة أما هم فيكونون جلادين أرسلتهم الحياة لجلدنا لتترك في ذاكرتنا آثار سوطهم، وكانت زوجة والدي هي ذلك الشخص الذي ترك آثارا لا تمحى في ذاكرتي، أما أنا فكنت مجرد عابر سبيل في ذاكرتها، وبعد أن جربت كل طرق التعذيب النفسي معي، تذكرت شيئا ربما لم يخطر ببالها من قبل، وهو أن تستفز عاطفتي بذكرى أمي، فقالت لي مرة، وهي تفتخر بحب أبي لها أن أبي يكره أمي بشدة بعد قتلها لأخي وأنه طلقها بعد أن دفنه وقضى تلك الليلة في منزل جدتي، فتذكرت لحظتها أنه حقا كان غائبا وقتها، كنت أبلغ حوالي السادسة عشر من عمري وقتها، صرخت عليها بقوة وقلت:« أبي لا يكره أمي وهي لم تقتل أخي، أنت تغارين منها لهذا تتحدثين عنها هكذا»،فضحكت باستهزاء وقالت« أغار منها وماذا تملك ولا أملكه لأغار منها»، فقلت لها «لا تملكين أطفالا»، وفي تلك اللحظة دخل والدي المنزل فركضت إليه تدعي البكاء وتقول «تعال اسمع ما تقوله ابنتك عني بعد كل الاهتمام الذي منحتها إياه، أصبحت تعيبني بأني لا أنجب الأطفال وأغار من أمها لهذا السبب»، نظر إلي بدهشة فقلت «هي من كانت تتحدث بسوء عن أمي، وتقول بأنك تكرهها وطلقتها بعد موت أخي»، أدهشه سماع ذلك فصرخ عليها قائلا «لماذا أخبرتها بهذا، ألم أنبهك بألا تخبري أي أحد»، كان رد فعله صادما لي فهو لم ينكر على الإطلاق ولم يبد أي شعور بالندم، فأيقنت أن ما قالته صحيح، ومنذ ذلك اليوم زاد كره زوجة والدي لي كثيرا فهي تظن أني تعمدت أن أعيبها بعدم قدرتها على الإنجاب، فهي عقيم والجميع يعلم ذلك وربما لهذا السبب كانت تسيء معاملتي لسنوات، فلا أحد يولد سيء فالظروف هي التي تجبرنا على أن نصبح كذلك»

ندى:«أيعني هذا أنك سامحتها على كل ما فعلته معك، وتلقين اللوم على الظروف بدل إلقاءه عليها»

زينب:« لا تتعجلي بالحكم فأنت لم تعرفي بعد ماذا فعلت معي، فالمرء يسامح حين ينسى وينسى حين يبتعد وأنا لم أحظى لا بالنسيان ولا بالابتعاد»

ندى:«وما الذي فعلته معك ويصعب عليك نسيانه»

زينب:«جعلتني أصاب بالأرق»

ندى:«ماذا ؟ هل أنت مصابة بالأرق»

زينب:«نعم، ولهذا السبب كنت مصرة على معرفة قصتك وسبب إصراري هو أنك مصابة بالأرق مثلي، والسبب الآخر هو رغبتك بالموت والتي لم أرها في شخص آخر من قبلك غير أمي، فهي رأت أن الموت سيريحها فلم تكلف نفسها عناء المقاومة».

ندى:«إذا فقد رأيت فيا ماضيك لهذا كنت مصرة على معرفة ماضيَا، ولكن كيف أصبحت مصابة بالأرق»

زينب:« أخبرتك أن كره زوجة والدي لي زاد أكثر بعد أن أعبتها بعدم القدرة على الإنجاب كما تزعم هي رغم أن نيتي لم تكن كذلك، ومنذ ذلك الحين أصبحت تضع في طعامي وفي علب العصير حبوبا منومة، أصبحت في البداية أنام ضعف الوقت الذي كنت أنام فيه، فتخبر والدي أني لا أفعل شيء سوى الأكل النوم وأني جعلتها خادمة عندي فهي من تطبخ وتنظف بينما أنا أنام لتبدو أمامه طيبة ومظلومة وأنا عكس ذلك فيغضب والدي ويتشاجر معي يوميا حول هذا الموضوع، وهذا ما كانت تصبو إليه، لم أفهم حينها ما الذي جعلني أشعر بالنعاس طوال الوقت حتى أنني كنت أنام أحيانا في الصف ولا أستوعب في الأحيان الأخرى أي شيء من الدرس وهو ما جعلني أرسبت ذلك العام ، فأسعدها ذلك كثيرا وطلبت من والدي عدم السماح لي بالعودة إلى الثانوية لكنه لم يوافق على طلبها فزاد حقدها تجاهي، وربما ضاعفت وقتها عدد حبات المنوم فأصبحت أعاني من ألم لا يطاق في رأسي ولا أستطيع النوم في الليل ولا أنام سوى ساعات قليلة من النهار، وهكذا مرت ثلاث سنوات أتناول الحبوب المنومة دون أن أعلم بذلك، وثلاث سنوات مدة كافية ليتحول نومي إلى أرق بسبب تلك الحبوب فهي تعمل بطريقة عكسية إذا تناولناها بطريقة أو كمية خاطئة وأنا قد تناولت منها ما يفوق الخيال، بلغت وقتها التاسعة عشر من عمري كنت سأجتاز امتحان البكالوريا ذلك العام،فقدمت خالتي من ألمانيا رفقة وصال بعد سنوات لزيارتنا، أخبرتها أنني لا استطيع النوم، ظنت في البداية أنه بسبب توتري من اقتراب موعد الامتحانات وحين أخبرتها أن هذا يحدث معي منذ مدة طويلة، اقترحت علي الذهاب إلى الطبيب، فوافقت، وكل ما فعله الطبيب هو أنه وصف لي حبوبا منومة، وبعد أسبوع عادت خالتي ووصال إلى ألمانيا، فأجهدت نفسي بعدها بالدراسة، ومثلما كان لديك حلم كان لدي أنا أيضا حلم وهو أن أبني ملجأ للأيتام، فتبا لمن قتل أحلامنا وجعل آمالنا تذهب سدى»

ندى:«إذا فحلمك أيضا لم يتحقق»

زينب:«بالطبع لم يتحقق، فالأحلام تبقى أحلاما إلى أن تصبح كوابيسا، وهكذا حدث لأحلامي، فحين حان موعد الامتحانات مر اليوم الأول والثاني عاديين أما الثالث فكان سيئا للغاية، لم أنم طول الليل كالعادة وفي الصباح كان ألم رأسي لا يطاق، كنت أشعر أن رأسي أثقل من جسمي، رأتني زوجة والدي على ذاك الحال فادعت الاهتمام أمام والدي كعادتها وأعطتني حبة مسكن للألم فهذا ما ظننته في البداية ولكنها في الحقيقة أعطتني دواء يعطى للمرضى عقليا ولكن لا أدري لأي سبب، وبعد جلوسي لاجتياز الامتحان فقدت وعيي، وحين استيقظت وجدت نفسي في المستشفى، وكان هذا بالنسبة للجميع شيئا عاديا، فالكثير من الناس يفقدون وعيهم بسبب الخوف والتوتر وقت الامتحان، أما أنا فلم يكن

توتري هو السبب بل حبة الدواء التي أخذتها هي السبب فكنت أتصرف بطريقة غريبة حين استيقظت وكأن خيوط عقلي تشابكت ببعضها، ظن والدي أن هذا بسبب عدم اجتيازي للامتحان ولكني كنت وقتها قد نسيت أمر الامتحان تماما حتى عدت إلى المنزل فعندها استوعبت أنني لم أجتز الامتحان الأخير وأنني لن أنجح، بكيت حتى شعرت أن روحي جفت وكنت أرغب أن أهرب من ذلك الشعور بالخسارة بالنوم فأخذت كعادتي حبة من حبوب المنوم التي وصفها لي الطبيب وكالعادة لم أستطع أن أغفوا ولو لدقيقة واحدة، فبقيت أنظر إلى الساعة وأعد الدقائق وهي تمر، كنت تلك الليلة قد اكتفيت من ذلك الوضع ومن عدم قدرتي على النوم، فالنوم علاج لنا من أنفسنا، فنهرب به من ذكرياتنا وأنا حرمت لحظتها من ذلك العلاج فأصبحت لا أطيق نفسي، وحين انقضى الليل وحل الصباح خرجت من غرفتي مثقلة الخطوات بسبب ألم رأسي وحين مررت بجانب غرفة والدي سمعته هو وزوجته يتحدثان عني وكل ما ترسخ من ذاك الحديث في ذهني هو كلام زوجته وهي تقول « لقد رسبت مرتين ألا يكفيك هذا لاتخاذ قرار بتوقيفها عن الدراسة، الدراسة لا تناسبها وهذا يتعبها ويتعب جيوبك لأنك تدفع الكثير في سبيل إنجاح تدريسها دون جدوى».

لم أفهم حينها ما الذي تريده مني، ولما تحاول بكل الطرق الإساءة إلي، فما الذي فعلته لها وما ذنبي إن كنت ابنة زوجها ولكن لم يؤذيني كلامها بقدر ما أذاني قرار والدي فقد قرر عني مستقبلي ورسم بذلك فشلي وألمي حين أخبرني أنه لن يسمح لي بالعودة إلى الدراسة مجددا وقال أنني خيبت ظنه بي أكثر من مرة، ترجيته كثيرا ليغير رأيه لكن قراره كان نهائيا ولم يستطع رجائي المستمر تغييره، فلم أعد إلى الدراسة و مر عام وأنا في المنزل وهي لا تزال تضع لي تلك الحبوب في الطعام،

وفي أحد الأيام كانت ترغب في زيارة بيت أهلها فطلب مني والدي مرافقتها لأنه مشغول ولا يمكنه اصطحابها فقلت له «فلتذهب لوحدها فهي معتادة على زيارة أهلها كل أسبوعين تقريبا وكثيرا ما تذهب بمفردها فما الداعي لأرافقها هذه المرة»

فصرخ في وجهي قائلا « لست هنا لأسمع رأيك طلبت منك مرافقتها وانتهى، أغربي عن وجهي الآن ولا تنسي أن تأخذي أغراضك معك لأنك ستنامين معها في منزل أهلها ». استغربت من كلامه فهو لم يطلب مني ذلك من قبل وسألته عن سبب مبيتي في بيت أهلها فأجاب أن لديه الكثير من العمل ولن يعود تلك الليلة إلى البيت ولا يريدني أن أبقى بمفردي، فقلت له « فلتبقى زوجتك معي إذا»، أغضبه كلامي فصرخ مجددا وقام من مكانه قائلا «زينب، افعلي ما أمرتك به ولا تدعيني أفقد أعصابي» فما كان عليا سوى الذهاب مع زوجته إلى بيت أهلها وعند وصولنا جلست برفقة والديها الطاعنين في السن وحاولت تجنب أختيها لأني لا أشعر بالراحة عند تواجدي معهما، لقد فاتهما قطار الزواج وكل حديثهما يتمحور حول الافتراء وقول الإشاعات عن الناس، كانت إحداهما تعمل موظفة استقبال في عيادة للطب

النفسي والأخرى ماكثة بالمنزل، بعد مضي وقت من جلوسي طلب مني والدها إحضار الماء له ذهبت إلى المطبخ فلم أجد أحدا هناك أحضرت كأس الماء له واستأذنتهما بالذهاب إلى الحمام وحين وصلت حاولت فتحه فوجدته مغلقا و تحدثت إحدى أختيها من الداخل قائلة « أنا أستحم اذهبي إلى الحمام في الطابق العلوي»، صعدت إلى الطابق العلوى فبدى لي مظلما وخاليا من الحياة كأنه مهجور لم أعرف مكان الحمام فلم يسبق لي الصعود لذلك الطابق من قبل لأني لم أدخل ذلك المنزل سوى مرات قليلة ولمدة قصيرة رفقة والدي ثم أرحل، قررت أن اسأل زوجة والدي عن مكان الحمام فتحت باب الغرفة الأولى التي كنت بجانبها فوجدتها فارغة وحين اقتربت من الغرفة الثانية سمعت صوتها فأمسكت مقبض الباب لأفتحه ولحظتها سمعتها تقول لأختها التي تعمل في عيادة الطب النفسي «سأجعلها تجن وتلحق بأمها »، شككت أنها تتحدث عني لأنها لا تكره أحدا بقدر ما تكرهني فلم أفتح الباب وتعمدت سماع ما ستقوله أيضا، قالت أختها «أظن أنها ستجن قريبا فأنت تضعين لها الحبوب المنومة في طعامها منذ سنوات » فردت زوجة والدي «كان سيحدث هذا قريبا لو أنك أحضرت لي كمية كبيرة من تلك الحبوب، لكنك لم تحضري سوى بضع حبات أعطيتها إياها وقت امتحانات البكالوريا، أما الحبوب المنومة فلم تحدث معها أي تأثير فأنا أضعها في طعامها وحتى في علب العصير منذ أربع سنوات ولكنها ظلت على حالها رغم شربها لعدد لا يحصى من العلب »

كانت تقول هذا ونبرة صوتها توحي بالغضب فردت أختها غاضبة «من الصعب جدا الحصول على دواء للأمراض العقلية ومع ذلك وفرته لك بعد جهد كبير وهذا يعرضني ويعرض وظيفتي للخطر ولكنك مع ذلك تلومينني لأني لم أستطع الحصول على كمية أكبر ثم انك لم تقومي حتى بمكافأتي على ما قمت به لأجلك لذا لن أراهن بنفسي لأجلك بعد الآن، ولن أحضر لك حبة دواء بعد اليوم».

شعرت في تلك اللحظة بأن الدم تجمد في عروقي كان كلامها صدمة مفاجأة لم أتوقع حدوثها، عدت بسرعة إلى الطابق السفلي بخطوات حذرة ونسيت أمر الحمام فقد كنت خائفة من أن ينتبها لوجودي، جلست مجددا مع العجوزين ظنا مني أنني أحتمي بهما، كان قلبي يتآكل في تلك اللحظات وأنا أقول في نفسي «ربما هذا حلم و سأستفيق منه ولكنني لم أنم منذ سنوات إذا فهذا حقيقة وإذا كان هذا حقيقة فهذا يعني أنني لن أستطيع أن أنام أبدا »

شرد ذهني وأنا أفكر بمدى قسوة زوجة والدي وإذا بها تدخل إلى غرفة الجلوس وتنادي علينا لتناول العشاء جلست إلى مائدة الطعام فانتابني الهلع ورفضت تناول أي شيء وتحججت بأن أعاني من حموضة المعدة ولا أرغب بالأكل ثم استأذنتهم للذهاب إلى غرفة الضيوف لأني شعرت أنني جالسة على مائدة أنا الوليمة فيها وكنت أرغب بالهروب بأي طريقة لأتخلص من شعور أنني سأفترس في أي لحظة، دخلت غرفة الضيوف وأغلقت بابها من الداخل وبقيت أنتبه لأي صوت يصدر من خارجها

وأفسره بأنه صوت خطواتهم وهم قادمون لقتلي فقد سيطر عليا التفكير السلبي من شدة الخوف، وكانت تلك إحدى أسوء الليالي في حياتي وبطبيعة الحال فإن الليالي السيئة يطول انقضاؤها وتصبح أطول بكثير من أن تكون ليلة واحدة فكنت أعد الدقائق التي كانت أشبه بالساعات حتى حل صباح اليوم التالي وبدأت أفكر بما عليا فعله هل أخبر والدي بما فعلته زوجته معي وهل سيصدقني وماذا لو طلب دليلا على صحة كلامي والدليل الوحيد هو الحبوب التي ربما لن تعيد وضعها في طعامي لأن شقيقتها تعهدت بعدم توفيرها لها مجددا ، والدليل الآخر هو عدم قدرتي على النوم وهذا لن يقنعه على الإطلاق وحتى لو اقتنع أنني لا أستطيع أن أنام فهو لن يحمل زوجته مسؤولية ذلك كوني لا أملك دليلا ضدها، تشوشت أفكاري ولم أجد حلا مناسبا،

وهنا سمعت صوت والدي فعرفت أنه جاء لاصطحابنا إلى المنزل شعرت بالأمان في وجود والدي وخرجت من تلك الغرفة لملاقاته وإذا بشقيقة زوجته تدعونا لتناول الفطور وهو ما كان يخيفني فقد كنت مستعدة لأموت جوعا على أن أتناول شيئا في ذلك المنزل، أخبرت والدي أنني لا أشعر بالجوع وسأذهب لجمع أغراضي بينما يتناول هو فطوره فلم يبد أي رد فعل، عدت إلى غرفة الضيوف وجمعت أغراضي وجلست أنتظره كنت في تلك الأثناء قد حسمت أمري وقررت إخباره بكل ما فعلت زوجته بي فهو أبي ولابد أن يقف إلى جانبي كما يفعل أي أب مع ابنته، هذا كان اعتقادي وقتها ولهذا حين عدنا إلى المنزل انتظرت جلوسه لوحده ثم أخبرته بكل ما سمعت، لم يبد أي رد فعل في البداية وكأنني كنت أتحدث إلى حائط ثم وقف من مكانه ونظر إلى بغضب وقال صارخا «هذا ما كان ينقص أن تحمليها مسؤولية أخطائك العمدية وتصنعي فيلما لتجعليها مذنبة في كل شيء»، لم أفهم قصده وقلت باستغراب «عن أي أخطاء تتحدث » قال «والآن تدعين عدم معرفتك بأخطائك ما رأيك أن تدعي أيضا أن زوجتي تكذب وأنك لم ترفضي تناول الطعام مع أهلها لأكثر من مرة، فعلت ذلك بغرض الإساءة إليهم لأنني أجبرتك على الذهاب معها »، فهمت من كلامه أن زوجته أخبرته أني لم أتناول الطعام لأتعمد الإساءة إليهم فقلت «أنا لم أتناول الطعام خوفا من أن تكون قد وضعت فيه تلك الحبوب كما تعودت أن تفعل » فقال بنظرة خيبة انتابته مني «أعمى الحقد قلبك ولم تعد تصرفاتك تطاق يبدو أنك لن تسعدي سوى بتحطيم هذا المنزل، حقا لا أصدق أنك ابنتي كيف لك أن تقولي شيء كهذا عن امرأة أفنت سنوات عمرها في رعايتك كابنة لها»

صدمني رد فعله وندمت كثيرا على إخباره فلم أعرف لحظتها ماذا أقول أو ماذا أفعل لأن رد فعله كان عكس ما توقعت، فرحت أحلف له أن ما أقوله صحيح وأن زوجته ليست طيبة كما يظن، لكنه لم يصدقني وطلب مني أن أصمت وأغرب عن وجهه قبل أن تأتي زوجته وتسمع ادعاءاتي، فاقترحت عليه أن يطلب منها أن تأتي ويخبرها بكل ما قلته لنرى ما ستكون ردة فعلها وما إن كانت ستحلف أن ما أقوله غير صحيح، لكن اقتراحي أغضبه أكثر فأمسكني من ذراعي ودفعني،

وقال غاضبا: «إن ذكرت هذا الموضوع مجددا أمام زوجتي أو أي أحد آخر فسترين وقتها غضبي الذي لم تريه من قبل، أنت لم تري مني سوى الحب والاهتمام لهذا تماديت، لقد أخطأت حين لم أبعك لخالتك بسعر زهيد، فأنت لا تستحقين أي ثمن». كنت مصدومة ولم أفهم وربما تعمدت أن لا أفهم ما كان يقصد حين قال أنه رفض بيعي لخالتي ووسط حيرتي تلك أدركت أن كل شيء أصبح يباع بالمال حتى الحب والاهتمام، ذهبت إلى غرفتي وجلست هناك لساعات وأنا مصدومة، تائهة ومحتارة ونادمة لأني ظننت والدي كسائر الآباء فكنت حمقاء لأنني لم أدرك أن الكثير من الآباء تنتهي أبوتهم بمفارقتهم لأم أبنائهم سواء بالموت أو الطلاق وكان والدي من هذا الصنف فهو لم يكن أبا لي ولم يكن سوى زوجا لزوجته فقد كذبني رغم صدقي وحلفي وبرأ زوجته من دون أن يسمع حتى رأيها، لم أفهم ما علي فعله فقد خسرت دراستي وقدرتي على النوم بسبب زوجته وهذا ما جعلنى أتمنى أن تصيبها كل شرور العالم لحظتها، فهي حطمت أحلام يقظتي وأحلام نومي، كانت كلمات والدي تجول في خاطري فقررت أن أسأل خالتي عن حقيقة ما قاله ، خرجت من المنزل دون أن ينتبه والدي وحتى لا يسمع حديثي، اتصلت بخالتي عبر الهاتف وأنا متلهفة جدا لسماع ما ستقوله، تخطيت كل الرسميات وسألتها مباشرة «هل حقا رغبت بشرائي من والدي لكنه رفض لأن المبلغ الذي عرضته عليه كان قليلا» قالت «ما هذا الهراء يا زينب وهل يمكن لأي شخص شراء شخص آخر» فقلت «الأشخاص لا يمكنهم ولكن المال يمكنه، والآن أخبريني بالحقيقة ولا تنكري»، قالت «أخبريني أولا من قال لك هذا الكلام ولماذا» لم أشاء أن أخبرها بكل شيء فأنا لم تكن لدي رغبة في الحديث عن الموضوع وتذكر أحداثه الخانقة، فقلت بأني تشاجرت مع والدي ولهذا قال أنه ندم لعدم بيعي لك بثمن قليل، صمتت خالتي لوهلة فعرفت أن كلامي صدمها وقسوة والدي أسكتتها، ثم قالت « زينب تعلمين قدر محبتي لك، ومهما قست عليك الحياة سأكون بجانبك، لذا لا تفكري أنك وحيدة ومهما كان ما سأقوله لك لا تدعيه يؤثر عليك سلبيا »،

لم أفهم لما كل هذا الحرص في كلامها وهل ما ستقوله سيكون سيئا لتلك الدرجة، قلت لها لا تخافي مهما كان ما ستقولينه فلن أسمح له بأن يؤثر علي،

فقالت «سأخبرك إذا مع أني كنت حريصة على عدم معرفتك بذلك، أتذكرين بعد وفاة أمك أنني طلبت من والدك أن يسمح لي بأخذك ووصال للعيش معي لكنه رفض في البداية وبعد إصراري عليه اقترح بيعكما لي، أدركت حينها كم هو شخص سيء فوافقت لأجل إبعادكما عنه لكن المبلغ الذي طلبه كان كبيرا ولم أستطيع توفيره كله فعرضت عليه نصف المبلغ لكنه رفض وقال بإمكاني أخذ واحدة منكما بنصف المبلغ ذاك، ترجيته كثيرا لكنه لم يغير رأيه لذا اخترت أخذ وصال لأنها كانت صغيرة جدا على تحمل قسوة الحياة من دون أم، خاصة وأنها كانت متعلقة بي جدا وقتها، وحين عدت بعد سنوات وجدت والدك قد تزوج فعرضت عليه الموضوع مجددا لأنني استطعت توفير باقي المبلغ الذي طلبه مني لكنه

رفض وقال أن زوجته لا يمكنها الإنجاب وأنك ابنته الوحيدة لذا لا يريد إبعادك عنه، فاعتقدت أنه أصبح شخصا جيدا وأنك مرتاحة وسعيدة برفقته، وقررت عدم مفاتحته في الموضوع مجددا».

لم أكن أفهم بما أشعر هل بالحزن لأن والدي رغب ببيعي أو بالسعادة لأنه رفض بعدها ذلك أو بالغباء لأني لم أكن أعلم بكل هذا أو بالتعاسة لأني علمته، أنهيت المكالمة بعد أن نصحتني خالتي وقالت «لا تسمحي لأشياء مضت وانتهت أن تقرر مصيرك انسي ما مضى وأرسمي مستقبلك بريشة من أمل ليكون لوحة مليئة بالحياة » بعد أن قالت خالتي هذا الكلام كنت أفكر في أن نسيان المواقف السيئة من حياتنا شيء جيد ولكن كيف سأنسى إن بقيت أقابل كل يوم وجوه من صنعوا تلك المواقف فالنسيان جيد فقط إن نسينا الجزء السيء من ماضينا أما حين يكون مجرد شيء نتمنى حصوله فلا معنى له وكم كنت أتمناه حينها ولكن من يتمنى شيء أو يبحث عنه لا يجده ومن يخاف من شيء يحصل له فهذا قانون الحياة وكنت أعلم أن هذا القانون سيطبق عليًا ولن أحظى بالنسيان، لأن أرقي منشط لذاكرتي وذكرياتها القاسية، فكيف سأنسى وأسامح من أخذت النوم من بين جفوني ومن كانت سببا في أن أخسر دراستي وثقة والدي.

ندى:« وربما هذا أيضا أحد قوانين الحياة القاسية أن يكون هناك دائما فرد من كل عائلة تختاره الحياة ليدفع ثمن أخطاء الأهل وجنون الإخوة »

زينب:« و الأسوء هو العودة إلى أحضان تلك العائلة فقد عدت إلى المنزل بخيبتي وقضيت طول الليل أفكر فيم علي فعله فأنا لم أعد أستطيع تحمل العيش تحت ذاك التهديد المستمر والظلم المتعمد وحين حل صباح اليوم التالي سمعت صوت زوجة والدي فرغبت بالابتعاد ولا شيء آخر،

خرجت من المنزل لآكل شيئا ما لأني لم آكل منذ يومين خوفا من أن تضع لي شيئا يرديني مجنونة كما توعدت لي، سرت باتجاه المول وفجأة سمعت صراخ طفل يركض نحوي هاربا من كلب يلاحقه أسرعت باحتضان الطفل وخبأته بين ذراعي فقام الكلب بمهاجمتي وغرس أنيابه في ذراعي، اجتمع حولي المارة وأخذني أحدهم إلى المستشفى ،أما الطفل فظل إلى جانبي بانتظار عائلته وبعد دقائق دخلت أمه وركضت مسرعة لاحتضانه، بعدها تقدمت نحوي و قالت « لن أستطيع أن أرد لك هذا الجميل ما حييت فأنت ضحيتي بنفسك لتنقضي ابني ومهما قدمت لك لن يكون كافيا لشكرك أيتها البطلة»، قلت «لم أفعل سوى واجبي وأي شخص مكاني كان سيفعل نفس الشيء»

لحظتها دخل والدي لا أدري كيف علم بالأمر، ربما أخبره أحد المارة، كان غاضبا جدا، صرخ في وجهي قائلا «ما كان ينقصني سوى عضة كلب متشرد، هل جننتِ لترمي بنفسك أمامه ألا تعلمين أن عضته قد تكون مميتة أو معدية، لا تقتربي مني ولا من زوجتي عند خروجك من هنا اذهبي إلى بيت جدتك لأنه واسع اعزلي نفسك هناك إلى غاية أن نتأكد إن كنت معدية أم لا» لم أستغرب كثيرا ردة

فعله، لكن والدة الطفل كانت مصدومة جدا حتى أنها صرخت في وجهه قائلة« كيف تقول عنها معدية هل أنت مجنون لتتحدث إلى ابنتك بهذا الأسلوب، إنها فتاة شجاعة وليست مثلك أيها الجبان»

أسرع والدي بالخروج دون أن يرد عليها، سألتني عن والدتي فأخبرتها بأنها توفيت منذ سنوات، ابتسمت لي ونظرات الشفقة بادية على وجهها وقالت « اعتبريها عادت إلى الحياة بشكل ووجه مختلفين»

قلت:« وكيف ذلك»

فقالت« اعتبريني أمك من اليوم فصاعدا، فأنا لدي شاب في عمرك لكنه مغترب و ليس عندي بنات ويسعدني جدا أن تكوني أنت ابنتي»، شعرت أنها تشفق على حالي وعلى يتمي، وتلك الشفقة هي ما يزيد من ألمي فقلت لها « أنا لست بحاجة إلى شفقتك فأنا لم أنقذ ابنك للحصول في المقابل على أمومتك المزيفة »

قالت « لا يمكن للأمومة أن تكون مزيفة وأنا لا أشفق عليك لأنك لست محلا للشفقة بل على العكس، فلابد أن خسارتك لوالدتك قد علمتك كيف تكونين قوية وتعتمدين على نفسك فاليتم ينضج ويقوي » وفي تلك اللحظة دخلت الممرضة وأعطتني حقنة وقالت يمكنك الذهاب الآن ولكن يجب أن تعودي يوميا لإكمال أخذ باقي الحقن، وخرجت فقال ابن تلك السيدة « أنا آسف بسببي ستأخذين الكثير من الحقن » ابتسمت له فنظرت أمه إلي وقالت « أقل ما يمكننا فعله هو اصطحابك معنا للمنزل، منزلنا قريب من المستشفى، ابقي معنا على الأقل لغاية إكمالك أخذ الحقن، أنا مصرة على هذا فرجاء وافقي » فكرت في كلام والدي وكيف قال بكل قسوة أنني يمكن أن أتسبب له بالعدوى، كيف خاف مني بدل أن يخاف علي وكيف أمكنه أن يعاملني كفيروس يخاف أن يصيبه ثم قلت لها « حسنا سأرافقكم لكن عليا أولا أن أذهب إلى منزل والدي لأحضر أغراضي» ابتسمت السيدة وقالت «سأوصلك إذا ثم نذهب إلى بيتي » أوصلتني بسيارتها إلى المنزل فدخلته لأودعه وأودع ذكرياتي القاسية فيه وعاهدت نفسي أن لا أعود إليه مجددا و أن أجد مكانا أمكث فيه بعد مغادرة بيت تلك السيدة، عندما دخلت البيت لم أجد أحدا فيه فوالدي يعمل في ذلك الوقت وزوجته لا أعلم أين ذهبت، جمعت أغراضي بسرعة ثم فكرت أن أكتب شيئا لوالدي قبل رحيلي، كنت أرغب بقول الكثير لكنني اكتفيت ببضع كلمات وكتبت له « أبي، لقد عدت للمنزل من أجل أن أجمع أغراضي لا تخف فأنا لم ألمس شيئا سوى هذا القلم لذا سآخذه معي كي لا تصيبك العدوى إن لمسته بالخطأ، أنا ذاهبة لكن ليس لبيت جدتي سأظل عند إحدى صديقاتي سأكون بخير أينما وجدت لا تشغل بالك علي انتبه لنفسك ولزوجتك..... ابنتك الوحيدة زينب » وضعت الرسالة على مكتبه وخرجت فورا، ركبت السيارة مع السيدة واتجهنا إلى منزلها، لم أستطع تخيل كيف ستكون حياتي بعد تركي للمنزل، وكنت أقول في نفسي لا بد أن القادم أسوء فالأحداث السيئة دائما ما تأتي مع بعض وتسوء أكثر في كل مرة، لم تسألني تلك السيدة عن شيء ولم تتحدث إلي طول مسافة

الطريق حتى وصلنا فكسرت صمتها وقالت: «تفضلي إلى منزلك الجديد، وهي مبتسمة، دخلت معها فأرتني كل المنزل وأعطتني إحدى غرفه لأقيم فيها، اهتمت بي كثيرا ذلك اليوم وعندما حل الليل قالت «سأتركك لترتاحي الليلة وسنتحدث في الصباح، فأنا أعلم أن أعماقك ممتلئة وبحاجة لأن تفرغ قليلا من همومها» و خرجت وأغلقت باب الغرفة وهي مبتسمة، أعجبني شعورها برغبتي، فأنا كنت أرغب بشدة بالحديث ولكن من دون كلمات، كنت بحاجة لأفرغ غضبي، حزني و اشتياقي وكل المتناقضات التي اجتمعت بداخلي ولكن من دون حديث بل بطريقة أخرى كالبكاء أو الصراخ أو حتى بالنوم لأيام أو لأسابيع ولكنني لم أنم ولو لدقيقة ونشَط أرقي ذكرياتي المرهقة فأتذكر الماضي ثم أفكر في الحاضر و أسأل نفسي « ما الذي أفعله هنا، هل قرأ والدي رسالتي و ما الذي يفعله الآن يا ترى، هل أتصل بخالتي وأخبرها بكل ما حدث...» قضيت الليل كله أسأل نفسي ولا أجيبها حتى حل الصباح فخرجت من الغرفة وجدت تلك السيدة تحضر الفطور ابتسمت عند رؤيتي وسألتني إن نمت جيدا ابتسمت لها و قلت: «سأذهب للمستشفى من أجل الحقنة»

قالت « الفطور جاهز فلنتناول فطورنا وبعدها نذهب سويا » أخبرتها أن لا تتعب نفسها لكنها أصرت على أن ترافقني وحين ركبنا سيارتها عم السكون للحظات ثم قالت «الحياة تقسوا دائما على الطيبين، وقلوب الطيبين مصابة بالهشاشة وتكسر ضلوعها عند أول خيبة» نظرت إليها فابتسمت وأكملت حديثها قائلة « لماذا لا تخبريني بخيبتك فالقدر أحيانا يرسل للتعساء من ينقذهم يهبهم حياة جديدة فيحظون بفضله بالخلاص مما مضى من ألم و ربما أحظى معك بفرصة أن أكون منقذة »

قلت لها «ومن أخبرك أني تعيسة»

فقالت: «التعاسة ترتسم على الوجوه كما ترتسم التجاعيد، فتغير شكل العيون وتضيف لها بريقا خاصا يسمى بريق التعاسة، ولا يمكن صناعة ذاك البريق أو تقليده، فهو لا يتشكل سوى حين نكون تعساء أخبريني إذا ما هو سبب تعاستك ، أهو الحب المخادع المقنع بقناع الصدق، إن كان هذا هو السبب فالحل بسيط اعتبريه تجربة وتعلمي منها ولا تسمحي له بأن يكسرك»

قلت: «الحب لا يكسرنا بخيباته بل يبني بها حاجزا ضد الثقة»

فقالت: «إذا أنت لست مكسورة أنت فقط عديمة الثقة بالغير ولابد أن الألم هو ما جعلك عديمة الثقة هكذا فالألم يقتل حب الآخرين في أنفسنا ويجعل الثقة بهم منعدمة و لكن ما سبب هذا الألم أهو أب قاسي أو حبيب خائن أو غياب أم أبدي هو من تسبب بهذا »

قلت: «لا أعلم، أظنها الحياة هي من تسببت بكل هذا فهي من جمعت غياب الأم بقسوة الأب فشكلت بذلك الألم الذي بداخلي»

قالت: «إذا فلا دخل للحب في كل هذا، العائلة هي السبب، هكذا هي العائلات كقالب الحلوى مزيج من كثير من المتناقضات بعض من الحب والاهتمام وبعض من المشاكل والشجارات، وقدرين متساويين من الحزن والسعادة ومن الضحك والبكاء ولكن حين تطغى القسوة على هذا المزيج تتحطم بذلك العائلة، ولذلك فإن أكثر الجراح ألما هي التي تسببها لنا عائلاتنا ولكن لا عليك فنحن لن نتعلم إن لم نتألم ولن نصبح أقوياء إلا إذا مررنا بأقسى مراحل التعب والضعف وتخطيناها بأنفسنا، فالألم يفعل بأرواحنا كما يفعل اللقاح بأجسادنا إذ أنه يضعفها ومن ثم يكسبها مناعة ضد المرض ويقويها، وهكذا هو الألم يضعف أرواحنا حد الهلاك ثم يقويها ويكسبها حصنا منيعا ضد الحزن واليأس فنحن بالتجارب القاسية نكتسب حصن الجمود واللامبالاة، فيا لقسوة و حنان الألم إنه كالأمهات تطعمنا بقسوة أحيانا لنكبر وهو يُطعمنا الخيبات لننضج فيجعلنا ننضج من خلال خيبة»، ثم أوقفت السيارة وقالت «ها قد وصلنا » كنت شاردة وأنا أستمع لكلامها فلم أنتبه لوصولنا، دخلنا المستشفى وأخذت الحقنة اللازمة ، كان الخوف باديا على وجه ابنها عندما حقنتني الممرضة فقالت أمه «لا تخف عليها ستعتاد الأمر ومع الوقت لن يصبح ما يؤلمها في العادة مؤلما فالوقت كاف بتخذيرها فالاعتياد علاج ربما قاسي لكنه ينفع».

انتبهت وقتها لابتسامتها التي لا تغادر وجهها وشعرت بأنها امرأة قوية تفضل مواجهة تقلبات الحياة القاسية على الهرب والاختباء فهي تعرف أن علينا أن نعيش ألامنا ونعتاد عليها حتى تصبح بمرور الوقت شيئا عاديا وهكذا فقط نتخلص منها و حين ركبنا السيارة للعودة إلى المنزل سألتها « متى يعرف المرء أنه اكتسب حصن الجمود واللامبالاة » ابتسمت بفرح وقالت « لابد أنك متلهفة لاكتسابه، يكتسبه المرء حين يكون قد تألم ألما حقيقيا و الألم الحقيقي هو أن تموت رغبة المرء في كل شيء إلا البكاء ومع هذا لا يبكي فالدموع في تلك الحالة يصعب عليها البقاء في الأعماق أو الخروج منها فتستقر بريقا في العيون، هذا الألم يكون مؤلما لدرجة أن يفقد المرء وعيه الحسي فيتوقف عن الشعور و كأنه مخدر فهو يفعل بالقلوب كما يفعل الصقيع بأصابعنا يخذرها ويجمدها فالألم يجعل المرء باردا هادئا و وحيدا لا يهتم لأي شيء ولا لأي أحد و للألم مراحل فهو يبدأ صدمة وينتهي تجربة و بعد اجتياز المرء لكل مراحله يكتسب حصن الجمود واللامبالاة »

قلت: «هلَّا أخبرتني ما هي مراحله و كيف يخلق مؤلما جدا ثم يتلاشى ليأخذ معه شخصية المرء الحقيقية»

قالت: «يعيش المرء بشخصيتين إحداهما يولد بها والأخرى تولد فيه بعد أن تلتفت الحياة فجأة إليه لتلقنه دروسها الصعبة وتجبره على اجتياز امتحاناتها وتلك الامتحانات ما هي إلا آلامه التي يعيشها ويبدو أن موضوع الألم أثار انتباهك و أصبحت متلهفة لمعرفة أي مرحلة من مراحله قد وصلت، فلكل شيء في الحياة مراحل فكما للحب مراحل فللألم مراحل إذ يبدأ بالصدمة ثم الحزن و البكاء ثم التذكر والتحسر

وبعدها التعود ويليها التناسي ومن ثم اللامبالاة، هذه مراحله ولا يمكن أن نقفز من مرحلة إلى ما بعد المرحلة التي تليها، فهو سلسلة بحلقات مترابطة، وكما للألم سلبيات فله ايجابيات أيضا، فمنه نتعلم الكثير ونكتسب الخبرات ونتوقف عن التفكير كمراهقين، فهو يجعلنا نفكر ككبار السن المليئة جعبهم بالخبرات فننضج بفضله لنصبح أذكياء وسريعي البداهة وقليلي الثقة بالغير و يجعلنا ندعس على قلوبنا ونفعل فقط ما يناسب عقولنا فنحصل بذلك على الأشياء العملية والمناسبة لنا»

قلت: «تبدين خبيرة في هذه الأشياء يبدوا أنك تألمت كثيرا في حياتك»

قالت: «وهل هناك من لا يتألم، لا تظني يا صغيرتي أنك الوحيدة التي تتألم في هذا العالم و أن عقارب الساعة توقفت عند ساعة ألمك ولم يشأ الوقت أن يمر، نحن جميعا نتألم، فنحن لم نخلق لنعيش في جنة، ما معنى الحياة إن عشنا جميعا أثرياء وأصحاء وكنا دائما سعداء، كل هذا يتناقض مع الحياة، فالحياة بحد ذاتها متناقضات فهي تحوي في طياتها الألم والأمل، السعادة والتعاسة، التعب والراحة، الضحك والبكاء، الغنى والفقر، والحب والكره، ونحن خلقنا لنعيش القليل من كل هذه الأشياء لنقدر قيمتها، فنحن لو كنا دائما سعداء لن نشعر بقيمة السعادة، فالبشر بطبعهم لا يقدرون قيمة ما يملكون ولا يشعرون بقيمة الشيء سوى حين يخسرونه، فحين نكون تعساء، ويحدث معنا فجأة شيء جيد حتى لو كان بسيطا سنشعر بحلاوة السعادة وبقيمتها، وهكذا يحدث مع باقي الأشياء فغيابها المفاجئ وعودتها المفاجئة أفضل من بقائها المستمر»

قلت:« أحببت كثيرا نظرتك للحياة، ليتك كنت في حياتي في الماضي لأكتسب من خبرتك»

قالت وهي تضحك:« لو كنت في حياتك لسنوات لما قدرت قيمتي، فنحن لا نعير اهتماما لما نملكه وكل ما يهمنا هو الحصول على ما لا نملكه، فالبشر يطمحون دائما بالمزيد»

قلت:« معك حق فنحن لا نقدر قيمة الأشياء إلا حين نخسرها، فلو كانت أمي على قيد الحياة لما قدرت قيمتها، ولكن خسارتي لها جعلتني أدرك قيمة الأم في حياة أبناءها»

قالت:« نعم، فالأم هي من تصنع شخصيات أبنائها وغيابها يجعل الظروف القاسية هي من تصنع شخصياتهم»، ولحظتها وصلنا فركنت سيارتها أمام المنزل وقالت:« وما أبشع المنازل حين لا تحضنها الأمهات بدفئها»

قلت:« نعم، فلا شيء يعوض غياب الأم سوى عودتها»

قالت:« أخبرتك بالأمس أن تعتبريني أمك عادت بشكل ووجه جديدين، سأفتح لك منزلي ليحتضنك بكل حب وحنان، وسأحاول قدر ما استطعت أن أعوضك عن فقدانك لأمك، فأنا لن أنسى ما فعلته مع ابني»،

قلت بعد أن دخلنا المنزل:« أنا متعبة وسأحكي لك ما يُتعبني طمعا في أن يريحني ذلك من تعبي»

قالت:« وهذا كل ما أرغب به، أن أكون سببا في راحتك بأن أعيد ترتيب الفوضى التي بداخلك كما تشتهين أنت»

بدأت أروي لها كل ما حدث معي منذ انتحار أمي وعن سبب انتحارها ، حكيت لها عن خالتي ووصال وعن أبي وزوجته وكل ما فعلته معي والأرق الذي تسببت لي به، سمعت مني كل تفاصيل حكايتي وحين أكملت، ابتسمت وقالت:« كل هذا أصبح من الماضي، أليس هذا كافيا لتكوني سعيدة»، لم أفهم شيئا في البداية حتى أني ظننتها امرأة قاسية، فهي لم تتأثر وهي تسمع قصتي والتي كانت بالنسبة لي قصة جد حزينة ومؤثرة، ثم أكملت حديثها قائلة:« تعلمي من المواقف وانسيها، فنحن إن رغبنا أن نعيش فعلينا أن ننسى ما مضى، وأن نستيقظ كل يوم ببداية جديدة، حين كنت بعمرك كنت دائما أقول لا تعلمونا كيف نسامح بل علمونا كيف ننسى، فبالنسيان نشفى، رغم أني كنت أعلم أن النسيان حلم والأحلام لا تتحقق ولكني كنت أعلم أيضا أنه حين تصبح آلامنا من الماضي تصبح مجرد تجارب اكتسبنا منها خبراتنا ولن تعود آلاما كما كانت في السابق، ربما أنت لم تكتسبي من تلك الآلام سوى الأرق والخوف من الظلام، ولهذا بقيت آلاما بالنسبة لك ولم تتجاوزيها وهذا لأن هناك ما يذكرك بها، وأكثر ما يذكرك بها ويجعلك تعيشين الحاضر في الماضي ليس الأرق ولا الظلام، ولا والدك ولا زوجته بل الفراغ في حياتك، فأنت لا تفعلين شيئا سوى الجلوس وتذكر ما حدث معك في الماضي، عليك أن تعملي ليس لتنسي فالنسيان أصعب من أن يحققه العمل بل كي لا تتذكري، فعدم التذكر يصبح أسهل حين نكون منشغلين بالعمل، وستعملين في مركز الشرطة فهو مكان تكثر فيه الانشغالات، وهذا بالضبط ما تحتاجينه كي تتوقفي عن تذكر أحداث الماضي في كل لحظة تمر من عمرك»

قلت:« وما الذي سأعمله في مركز الشرطة وهل سيشغلني التنظيف عن تذكر ما مضى علي من خيبات»

قالت:« ومن أخبرك بأنك ستعملين في التنظيف»

قلت:« وما الذي سأعمله غير التنظيف وأنا لا أحمل شهادة جامعية»

قالت:« هذا ليس زمن الشهادات الجامعية، إنه زمن المعارف، لم يعد للشهادات قيمة في هذا الزمن يكفي أن يكون لديك معارف للحصول على عمل، وأنت لديك مستوى دراسي يسمح لك بالعمل شرطية»

قلت:« ربما لدي مستوى يسمح بذلك، لكن ليس لدي معارف، وأظنك تعلمين أن حتى العمل بالشهادات العليا أصبح يحتاج إلى معارف»

قالت:« وهنا يأتي دوري كأحد معارفك وسأجعلك تحصلين على عمل في نفس مجال عملي، فأنا أعمل مديرة لسجن النساء وسنذهب في الغد لأحد أقسام الشرطة لأتحدث مع أحد معارفي بخصوص توظيفك»

قلت:« ولكن من غير الأخلاقي أن أستغل معرفتي بك للحصول على وظيفة»

قالت:« عليك أن تتصرفي حسب ظروفك لا حسب أخلاقك فإن كانت ظروفك تملي عليك الحصول على وظيفة عن طريق المعارف، فعلى أخلاقك أن توافق وتصمت لأن أخلاقك لن تطعمك إن عملت بما تمليه عليك، فهذا ليس زمن الأخلاق إنه زمن الركض لتوفير لقمة العيش دون إعارة اهتمام لطريقة توفيرها إن كانت أخلاقية أو ليست كذلك، فأصحاب الأخلاق والمبادئ هم من يموتون جوعا في النهاية، والجميع أصبح يدرك ذلك»، فكرت مليا في كلامها، وما الذي سيحل بي إن لم أستغل الفرصة التي قدمتها لي ورفضت العمل في مركز الشرطة، فكرت وأنا ألعن في باطني الزمن الذي نحن فيه، الذي جعلنا ندعس على أخلاقنا للحصول على وظيفة، ثم تصرفت حسب ظروفي لا حسب أخلاقي كما قالت لي ووافقت، ذهبت معها في اليوم التالي إلى مركز الشرطة، تحدثت مع أحد معارفها لمدة من الزمن ثم أعطته ملفي وعادت إلي وقالت:« سنذهب الآن وستعودين إلى هذا المركز لتعملي شرطية بعد حوالي أسبوعين، فهذا يحتاج إلى بعض الإجراءات والتي ستأخذ أياما لتنتهي، كنت سعيدة بذلك وغير سعيدة في آن واحد فقد شعرت بالتشتت والضياع، ولذلك اتصلت بخالتي حين عدنا إلى للمنزل، كنت مشتاقة لها وكانت قلقة علي، أخبرتها بكل ما حدث معي وبأني تركت المنزل، صدمها موضوع الحبوب المنومة وإصابتي بالأرق، فقالت لي بأنها ستأتي لترفع دعوى ضد والدي وزوجته وبعدها تأخذني معها، لكني رفضت ذلك رغم إلحاحها المستمر والذي لا يزال قائما حتى اليوم، وبقيت هنا فأنا لم أكن أرغب وقتها بالهرب رغم خوفي مما قد يحدث معي، فقد تعلمت من تلك السيدة أن أفضل طريقة لحل مشاكلنا هي مواجهتها، وبعد أن مر أكثر من أسبوع على زيارتنا لمركز الشرطة اتصل أحدهم بها حين كنا نتناول طعام العشاء، تحدثت إليه وحين أنهت المكالمة قالت لي«مبروك حصولك على الوظيفة ستبدئين العمل بعد غد، تحمست لحظتها وأنا مترددة، فقد كنت أخاف الفشل وأتحمس للنجاح فأحيانا يسعدني الأمر وأحيانا يخيفني، لكني لم أفشل، عملت لسنة في ذلك المركز ولم أكن أشغل نفسي سوى بالعمل حتى في أوقت فراغي، رأيت في مدة عملي هناك الكثير من القضايا الغريبة والجرائم القاسية، ثم اقترحت علي السيدة مروة مديرة هذا السجن وهي المرأة نفسها التي أنقذتني من الهلاك وكانت هدية القدر لي بأن أجرب العمل في هذا السجن لأنها كانت تنقصها حارسة تعمل ليلا، ورأت بنا المناسبة لذلك، فوافقت فورا على أن أعمل ليلا فقد ظننت أني سأكون منشغلة طول الليل وهذا أفضل من الجلوس دون

عمل شيء، فجلوس كذاك يجعل نفسي تتسلل إلى ذكرياتها رغما عني، ولهذا تركت العمل في مركز الشرطة وقدمت للعمل هنا، وكنت أتمنى لو بإمكاني العمل ليلا حارسة ونهارا شرطية وهذا لأكون دائمة الانشغال ولا يكون عندي أوقات فراغ، لكن هذا لم يكن ممكنا، ولهذا اخترت العمل حارسة فأنا قد أحببت هذه الوظيفة لسبب ما وهو أني لم أكن مجرد حارسة فقد كنت باحثة بين ملامح السجينات عن دليل ألم يرشدني إلى معرفة أسباب أوجاعهن التي جعلت منهن مجرمات في نظر الغير فلا أحد يولد مجرما، كنت أفعل هذا علني أكون منقذة لإحداهن كما حظيت أنا بالإنقاذ من قبل مديرة هذا السجن، فشعور أن تنقذ بعد أن كنت على وشك الغرق شعور ملئ بالأمل أتمناه لكل من أوشك على الغرق، ولهذا كنت أهتم دائما لمعرفة الأسباب العميقة والنفسية لارتكاب كل واحدة لجريمتها وأقدم بعدها كل ما يمكنني تقديمه من مساعدة، وقد سمعت قصص الكثير من السجينات منها الغريبة ومنها الحزينة، منها المؤلمة ومنها القاسية، ولكن قصتك كانت أكثر قصة تحمل كلا من الغرابة والحزن والألم والقسوة، وأنت أول سجينة أسمعها قصتي وأظنها تشبه قصتك قليلا، لم نعش نفس المواقف ولكننا اشتركنا في بعض الخيبات وجربنا نفس الشعور بالخسارة واليتم»

ندى:«وماذا عن والدك، أتعتبرين نفسك يتيمة له أيضا رغم أنه ليس بسوء والدي »

زينب:«يبقى والدي هو والدي في النهاية، ولم أنسى يوما أني عشت على تعبه لأكثر من عشرين سنة، فلم تكن مواقفه القاسية معي كفيلة بأن تنسيني أبوته، رغم أني لم أنسى ما فعلته زوجته معي ولكني أحاول دائما أن أتناسى مواقفه معي ولهذا أزوره أحيانا وتسعده زيارتي له مع أنه ضد فكرة أن أعيش لوحدي، فأنا قد تركت منزل السيدة مروة بعد شهرين من عملي في مركز الشرطة رغم إلحاحها علي بالبقاء واستأجرت منزلا قريبا من هنا أعيش فيه لوحدي، أما إجازاتي فأقضيها في منزل خالتي في ألمانيا»

ندى:«إذا فلا أحد معصوم من آلام الحياة وعذابها، وماذا عن الأرق ألازلت تعانين منه»

زينب:«الأرق ليس فقط عدم القدرة على النوم، فالنوم وسط أحلام من ذكريات الماضي أرق، وأظن أن الحبوب المنومة ليست السبب الوحيد في أرقي، فذكرياتي كانت أكثر مسبب للأرق لي بعد توقفي عن أخذ تلك الحبوب، وقد بدأت أتخلص قليلا من عدم قدرتي الكلية على النوم، لكني لا زلت أعاني من أرق الذكريات، فأنا قد داومت على زيارة طبيب نفسي فخالتي لم تتوقف يوما من إلحاحها علي في طلب ذلك بعد أن عرفت بأني أعاني من الأرق، فبدأت أتحسن قليلا وأنام ساعات قليلة من كل أسبوع»

ندى:«حقا قصتانا متشابهتان، فيا لغرابة القدر الذي جمعنا، إحدانا تخاف الضوء والأخرى تخاف الظلام وكلانا أكبر أحلامنا هو أن ننام»

زينب:«أو بالأحرى يا لغرابة ليالي الأرق التي جمعتنا، فالأرق هو ما جمعنا في هذا السجن ووسط كل هؤلاء النيام لنسمع قصص وآلام بعضنا، ولكن قصتك تبقى أكثر إيلاما من قصتي بكثير»

ندى:«لا يهم أي قصة هي الأكثر إيلاما، المهم هو أننا تعادلنا»

زينب:«صحيح، أخبرتني بأننا سنتعادل إن أخبرتك بقصتي، ولكن لم أفهم في ماذا تعادلنا»

ندى:«تعادلنا في سماع قصص وهموم بعضنا، وسنتعادل الآن بأن تأخذي قصتي إلى الحياة وآخذ قصتك إلى الموت»

زينب:«لم أفهم قصدك»

ندى:«أخبرتك بأنك الوسيطة بيني وبين الحياة والموت، سأذهب أنا إلى الموت وستذهب قصتي إلى الحياة وأنت من ستنقذينها من تحت أنقاض الألم لتأخذي بها إلى الحياة، ألم تخبريني بأنه لم تخلق كل الأسرار لتدفن بل خلقت معظمها لتخلد، وأن بإمكاننا تخليد أسرارنا في رواية نكتبها عن أنفسنا فمصيرها نحن من نحدده، ولكن في حالتي لست أنا من سيحدد مصير الجانب الحقيقي لحكايتي بل أنت من ستحددينه»

زينب: «أتقصدين أنك ترغبين قبل موتك أن أكتب رواية عنك»

ندى: «رغبتي هي أن تكتبيها يوما ما بعد أن أموت وليس قبل أن أموت وهذا اليوم سيأتي فجأة ليذكرك شيء ما فيه بحكايتي وبكل أحاديثنا، تماما كما يذكرني الضوء بأشياء ويذكرك الظلام بأشياء، وأريد أن تكون عنا نحن الاثنان وليس عني فقط، ألم تخبريني بأنك لطالما رغبت بكتابة رواية تخلدين فيها ماضيك، انقدي ماضيك إذا ما دمت تملكين وقتا لذلك وأنقذي معه ماضيًا من أن يموت معي كما مت أنا فيه فأنا لا أملك وقتا لذلك، فالموت هو مصيري القريب وقبل أن يكون كذلك كان رغبة وحاجة ماسة ولا يزال كذلك فأنا لم أخبرك بحكايتي لتنقذيني بل لتنقذيها»

زينب: «سننقذها معا، لا بد أن نجد طريقة لإنصافك فأنت لا تستحقين ما يحدث معك، عليك ألا تفقدي الأمل يا ندى، فالأمل هو الجسر الذي إذا سرنا عليه أخذنا من الفشل إلى النجاح ومن التعاسة إلى السعادة، فأرجوك لا تفقدي الأمل حتى ولم يبقى الكثير من الوقت»

ندى: «أوه، الأمل مر وقت طويل على آخر لقاء لي به، فقد كان اسما وأصبح حلما، فقد كانت أمي تناديني باسم آخر غير ندى في صغري وكان هذا الاسم هو أمل، ودائما ما أغضب حين تناديني به وأقول لها اسمي ندى فلما تناديننني باسم ليس لي فتقول الأمل اسم من حقنا جميعا ولكني لم أسمع أحدا يناديني به بعد موتها، بما لأن معناه قد مات معها»

زينب: «اسم جميل ومعناه أكثر جمالا»

ندى: «نعم إنه كذلك ولكنه لم يعد من حقي»

زينب: «بلا هو كذلك وأمك كان معها حق »

ندى: «ليتها بقيت معي ولم ترحل لتأخذ معها أملي أو ليتها فقط تدري كم اشتقت إليها وما الذي فعل بي غيابها»

زينب: «اصنعي أملا من أجلها إن لم يكن لأجلك وتمسكي بالحياة، وفكري معي بطريقة لإخراجك من هنا»

ندى: «أفضل اللحاق بها على أن أصنع أملا فارغا من أجلها فأنا قد تمسكت بالحياة لمرات عدة و في كل مرة كانت تفلتني لأسقط بقوة أكبر حتى كسرت كل ضلوعي فتمسكت بعدها بالموت»

زينب: «كنت دائما شجاعة فلا تضعفي الآن»

ندى: «إن اكتفى أحد من الحياة، ولجأ إلى طلب الموت الرحيم فهذا لا يعني أنه ضعيف، فالضعف شيء وعدم القدرة على التحمل أكثر شيء آخر مختلف وصعب للغاية، وأنا ما عدت أستطيع التحمل فقد خارت قواي»

زينب: «أنت ما عدت تملكين القدرة على التحمل بسبب ماضيك، عليك على الأقل أن تتناسي الماضي إن لم تستطيعي نسيانه فلا أحد يملك ترف الحصول على النسيان»

ندى: «الماضي جزء منا فهو بالأمس ماضينا واليوم حاضرنا وفي الغد مستقبلنا الذي ننتظره فإلى متى نبقى ننسى الماضي ونبدأ من جديد، إن رغبنا أن نعيش فعلينا أن نتعايش مع الماضي لا أن ننساه وأنا يستحيل عليا أن أتعايش معه أكثر من ذلك، ليس لأني لا أرغب بل لأني لا أستطيع، بالنسبة إليك الموت ظلم في حقي أما بالنسبة لي فالموت نجاة»

زينب: «الجميع يمرون بمواقف صعبة للغاية فلا أحد معفي من صدمات الحياة وان نظر الجميع الى الحياة من الزاوية التي تنظرين إليها فلن يبقى أحد على قيد الحياة»

ندى: «ننظر للحياة على أنها مأساة حين نكون سجناء ماضينا وحكم علينا بالمؤبد مع ذكرياتنا لن ينظر الجميع إلى الحياة كما أنظر إليها أنا فليس الجميع عاش ما عشته وليس الجميع أسير ذكرياته»

زينب: «ستتحررين من ذاكرتك إن هربنا من هنا فالخروج من هذا القفص سيجعلك تشعرين ببعض التحرر»

ندى: «أ تريدين مني أن ألعب لعبة الاختباء من الموت وأن أهرب كلما اقترب من إيجادي، دعينا لا نفكر كما أننا في فيلم ولنعد إلى الواقع حيث لا يمكن الهروب من القدر والموت هو قدري وقدرنا جميعا في النهاية، انسي فكرة الهروب هذه فمحاولة الهروب من القدر كالركض في دائرة مغلقة فنجد نفس المتاعب تعترض طريقنا في كل خطوة نخطوها إلى أن نعتاد عليها وعندئذ تظهر لنا متاعب جديدة»

زينب: «تسلل اليأس إلى قلبك فجعلت الحياة منك مجرد بقايا لروح محطمة ليتها فقط أعطتك فرصة وقت احتجت لذلك كالفرصة التي أعطتني إياها حقا لسنا سواسية فمنا من يحصل على فرص ومنا من تأخذ منه كل الفرص»

ندى: «لم تعطني الحياة فرصة لكن الموت أعطاني فرصة الذهاب اليه حين رغبت بذلك»

زينب: «لكنك لم تفعلي شيئا سيئا ليكون الموت مصيرك»

ندى: «الموت ليس مصير السيئين أو قليلي الحظ، الموت هو راحتنا الأبدية التي أسعى للحصول عليها فأنا لم أفعل شيئا سيئا فقد قتلت مجرمين لولا موتهما لتحطمت حياة الكثيرين ولهذا ربما أحظى بعد الموت بتلك الراحة فأنا لم أفعل في حياتي شيئا أتعمد به إيذاء أحد وكنت دائما من يتأذى وكل ما فعلته بوالدي وصديقه كان في لحظة استحضار للماضي بكل آلامه، فكانت لحظة قاسية مغضبة وجارحة، لحظة فقدت فيها السيطرة على تلك الطفلة بداخلي التي قتلت أمها أمام عينيها، وعلى تلك المراهقة التي اختطفت لتكون مجرد موقف مسلي وعابر لخاطفيها وضحية ليلة الخطف و ذكرياتها»

زينب: «ما فعلته بك الذكريات أسوء بكثير مما فعلته بك الحياة، هل ستظلين تنظرين للموت على أنه راحة وللحياة على أنها شقاء حتى حين تدركين أن كل هذا أصبح من الماضي وقد مضى ولن يعود»

ندى: «نعم سأظل هكذا فالموت نجاتي الوحيد وسبيلي للخلاص ولن أهرب منه بل سأركض فرحة لاحتضانه حين يأتي لأذهب معه على أمل أن أستعيد اسمي الذي كانت تناديني به أمي فتناديني به مجددا حين ألقاها هناك بعد كل هذا الغياب والشوق، صدقيني يا زينب لم أتحمس في حياتي لشيء كما تحمست الآن للموت فلا تحاولي قتل حماسي بفكرة الهروب تلك فلا شيء سيقتل هذا الحماس بالموت سوى الموت، فالموت شفائي من شقائي الذي منحته الحياة لي وأملي بملاقاة أمي التي منحني غيابها من الأمل ما كفاني لعمر كامل فأنا أشتاق لوجودها وما عاد اشتياقي لها يتحمل وأرغب باحتضانها بقدر السنين التي غابتها عني فادعي لي بذلك يا صديقتي ادعي لي أن ألقاها وأعدك بدل

ذلك أن أخبرها عنك وأطلب منها أن توصل سلامك لأمك و إخوتك فربما تعرفتا هناك كما تعرفنا نحن هنا»، اغرورقت عينا زينب بالدموع وقالت بصوت خافت تكسوه: «هل لي بعناق»

ردت ندى وهي مبتسمة: «لماذا تبكين، ألست سعيدة من أجلي، ظننتك صديقتي وستسعدك سعادتي»

زينب: «ألهذه الدرجة يسعدك الموت وتريدين أن أسعد معك»

ندى: «وكيف لا، وهو راحتي الأبدية، صدقيني لم أسعد في حياتي بشيء سوى بخبر اقتراب موتي»

زينب(والدموع تنهمر من عيونها)«عانقيني إذا لأبارك انتصارك ولتباركي هزيمتي فأنا لم أستطع إنقاذك من الموت فأنت لا ترغبين بمن ينقذك من الموت بل ترغبين بمن ينقذك من الحياة»

ندى: «والموت وحده سينقذني منها، فالحياة هلاكي الأول والأخير والآن سأعانقك لأودعها وأودعك وبعدها ستغادرين فورا»

زينب:«ولماذا أغادر»

ندى:«اعتبري أني أهبك حكايتي بآلامها لأتركها معك في هذا العالم بهذا العناق، فأنا أخاف أن تموت ذكرياتي معي ثم تعود لتحيا معي مجددا، ولهذا خُذيها وغادري ولا تعودي مجددا، فعودتك ستعكر صفو الأجواء عندي وتملأ مجددا الفراغ والهدوء الروحاني الذي سأحظى به بعد هذا العناق»

زينب:«كل هذا سببه عناق»

ندى:«نعم، حين يكون العناق صادقا يملؤه الحب، وحين نكون قد حرمنا منه طيلة حياتنا وحظينا به مرة في العمر، فيكون له مفعوله السحري»

ابتسمت ندى وهي تنظر لزينب وفتحت ذراعيها لتعانقها، رمت زينب بنفسها في حضن ندى وأجهشت بالبكاء، قالت ندى:«غادري الآن لتكوني قد حققت آخر رغبة لي، خذي حكايتي بآلامها للحياة وسآخذ آلامك للموت وأدفنها بجواري فلا تتألمي بعد اليوم إن لم يكن من أجلك فلأجلي، اذهبي وكوني سعيدة أينما كنت واتركي قصتي مدفونة في أعماقك إلى أن تحيا لوحدها ويومها فقط اكتبيها»

كانت زينب لا تزال تحتضن ندى بحزن وأسى والدموع تنهمر من عيونها، أفلتتها ندى وقالت:«غادري»، نظرت إليها زينب نظرة خيبة ويأس، فأكملت جملتها قائلة: «اذهبي الآن لتكوني قد حققت رغبتي الأخيرة، لا تقولي شيئا فقط غادري»

نهضت زينب وسارت باتجاه الباب بخطوات تثقلها الخيبة، خرجت من الزنزانة وأغلقت بابها ويداها ترتجفان، ثم رفعت رأسها ونظرت للحظات إلى ندى التي كانت قد استلقت على الأرض وبدأ شرودها يأخذها الى عالم آخر، ربما عالم الذكريات أو ربما عالم الأحلام، بعدها سارت زينب الى مكتب الحراسة، نظرت الى الساعة فوجدتها الثامنة صباحا ونصف أي أنه لم يبقى لانتهاء دوامها سوى نصف ساعة جمعت أغراضها وخرجت فورا وعند الباب الرئيسي للسجن التقت بمديرة السجن، ابتسمت لها المديرة قائلة« ألم أخبرك مرة بأن الأشياء الجميلة غالبا ما تأتي صدفة كنت سأتصل بك لنلتقي فقد سمعت أنك عدت من سفرك وأزعجني أنك لم تأتي لزيارتي على الأقل هنا في السجن وها نحن نلتقي صدفة»

كانت تتحدث وهي تسلم عليها بحرارة فلفت نظرها احمرار عينيها وتثاقلها على غير العادة فقالت« تبدين مكتئبة، ما سبب ذلك ولما عيناك هكذا، هل كنت تبكين، لا تقولي أنه الماضي عاد ليفعل بك هذا ويخرب حاضرك»

زينب:«ليس ماضيًا ولا حاضري، بل ماضيها وحاضرها، فهما قد اجتمعا ليمحيا آلامي بآلامهم، وأنا أريد أن أتحدث معك عنها فأنا بحاجة لمساعدتك»

المديرة:«بالطبع، فلنذهب إلى مكتبي وتحدثي قدر ما تشائين، فقد أصبحت متعودة على سماع قصص السجينات منك، ولكني لم أعتد على رؤيتك بهذا المنظر بسبب سجينة»

اتجهت زينب والمديرة إلى المكتب وجلستا ليبدآ حديثهما

قالت المديرة:«أخبريني الآن ما سبب هذه الغيمة الحزينة التي غطت وجهك وطغت على ملامحك»

زينب:«إنها قصة طويلة ومأساوية ضحيتها سجينة من سجينات هذا السجن ولكنها ليست كغيرها من القصص التي رويتها لك من قبل»

المديرة:« أخبريني إذا من هذه السجينة وما الذي حدث معها»

زينب:« ما حدث معها هو أن المحكمة ظلمتها لتبرأ مجرما»

ظلت زينب لساعات تروي الأحداث التي مرت بها ندى من بدايتها حتى لحظة عناقهما وحين أكملت قالت المديرة بصوت يملؤه الأسف «أنا آسفة يا زينب لن أستطيع مساعدتك بشيء هذه المرة فهذه السجينة قد قتلت شخصين وأحرقت جثتيهما وما فعلته أكثر من كاف ليكون الإعدام عقوبتها والمحكمة لم تظلمها بهذه العقوبة بل طبقت القانون»

زينب:« ولكنني أخبرتك بسبب فعلها ذلك»

المديرة:«أعلم هذا وأنا أشفق على حالها ولكن ما باليد حيلة فأسباب ارتكابها لن تبرأها على الاطلاق فهي مذنبة وستبقى كذلك مهما كانت أسبابها، وقرار المحكمة العليا قد صدر الآن وسيطبق لا محالة، ولا يمكن لأحد تغييره، وحتى لو لجأنا بطريقة ما إلى المحكمة، فماذا ستكون أسبابنا أتظنين أنهم سيبرؤونها أو يخففون عقوبتها إن قلنا بأنها فعلت ما فعلته خوفا من الخطف ونحن لا نملك أي دليل على ذلك وحتى لو كان بحوزتنا دليل فلن يغير هذا من قرار المحكمة لأن السجينة فضلت قتلهما على اللجوء إلى الطرق وإخبار الشرطة أولا بكل ما تعرفه وترفع بعدها دعوى ضدهما»

زينب:«لم تخطئ حين فضلت قتلهما على اللجوء إلى الشرطة فهي كانت تعرف بأن معارف عقاب من الشرطة كثيرون»

المديرة:«أعلم هذا ولكن المحكمة لن تعترف بذلك»

زينب:«بالطبع لن تعترف فحتى القائمون على المحاكمة من معارفه وأتباعه»

المديرة:«دعكي من كل هذا يا زينب فالسجينة في النهاية مجرمة»

زينب:«ليست مجرمة فوضعها النفسي لم يكن سويا آنذاك جراء ما عانته في حياتها، وهي لم تقتل عن سابق اصرار»

المديرة:« وحتى هذا لن تعترف به المحكمة فهي ستفسر الأرق بأنه عدم قدرة السجينة على النوم فحسب وليس سببا لكونها مريضة عقليا وكذلك خوفها من الضوء ستعتبره كأي فوبيا يعاني منها أي شخص عادي، فها أنت ذا تعانين فوبيا الأماكن المظلمة والأرق لكنك لست مريضة عقليا، زينب أنت تعملين هنا منذ عامين فحسب أما أنا فلي قرابة العشرين عاما وأنا أعمل هنا وخبرتي في هذا المجال أكبر من خبرتك بعقدين من الزمن ولو كان هناك أي أمل لهذه السجينة لكنت أول من ساعدك ولكن لا أمل عندها»

زينب:«فلنقم بتهريبها إذا إن لم يكن هنالك أمل بإعادة محاكمتها»

المديرة:« يبدو أن قصة هذه السجينة أفقدتك عقلك، من أين لك بهذا التفكير اللامنطقي»

زينب:« وأين اللامنطقية في تفكيري، وهل من المنطقي أن تعدم فتاة بعد كل تلك المعاناة»

المديرة:« هذه هي الحياة تفعل بنا ما تشاء ولا يحق لنا سؤالها لما تفعلين هذا فالله وحده يعلم الحكمة من كل ما نمر به من مواقف قاسية، وربما الحكمة من موتها هي أن تتخلص من ماضيها وقسوة

ذكرياتها بصفة نهائية وتحظى بحياة جديدة لا أحزان فيها ولا هموم، ألم تقولي أن رغبتها هي الموت وها هي ستحظى به فلماذا تصرين على أن تعيقي أمنيتها الوحيدة من أن تتحقق»

زينب:« ليست الحياة دائما هي السبب وراء فشلنا، فأحيانا نفشل بسبب خوفنا ونُحَمِّل الحياة مسؤولية ذلك، و نقول أنه القدر كي لا نلوم أنفسنا ولا يلومنا أحد»

المديرة:«ما الذي تقصدينه بكلامك أتريدينني أن اهرب سجينة أو أكون فاشلة، ما رأيك بأن أهرب كل السجينات وآخذ مكانهن في السجن حين تدري السلطات بذلك، فلو اتبعنا وجهة نظرك لاعتبرنا كل السجينات بريئات بسبب ماضيهن وأوضاعهن النفسية»

زينب:« لا أقصد شيئا، سأذهب الآن ولن أعود مجددا، لقد استقلت من وظيفتي»

المديرة:«ماذا؟ أنت حقا جننت، تريدين ترك وظيفتك بسبب سجينة، هل قرأت عليك تعاويذ من الألم فأدخلتك في حالة اكتئاب أو ماذا، أنظري إلى حالتك تبدين في عزاء أنت متوفيه، فلو مات أي أحد من عائلتك لن يرتسم الحزن على وجهك لهذه الدرجة، أنت متعبة خذي أسبوعا آخر إجازة لترتاحي و عودي بعدها للعمل»

خرجت زينب من مكتب المديرة دون أن ترد على كلامها، خرجت مشحونة باليأس فتثاقلت خطواتها وذبلت عيونها، سارت إلى منزلها دخلت و رمت نفسها على سريرها تبكي لساعات وتجلس صامتة لساعات حتى مر ما تبقى من ذلك النهار ثم مر الليل بأكمله ليحل ذلك اليوم الذي نقش فيه الألم وحجز الحزن موعدا سابق بقدومه يومها ليبيت جرحا لبقية العمر، كانت زينب لا تزال على حالها مستلقية في سريرها على وسادة مبتلة بدموعها، تنظر إلى الساعة وتحادث نفسها قائلة «هل غادرت إلى ذلك العالم أم أنك لازلت هنا في هذا العالم السافل» و حين اقتربت عقارب الساعة من أن تجتمع عند الرقم عشرة، ساعة تطبيق الحكم، وقفت من سريرها مسرعة و خرجت من منزلها، ركبت سيارة أجرة و أوقفتها بالقرب من ساحة الإعدام وقفت عند باب الساحة ترغب بالدخول ولا ترغب به ثم سارت خطوات إلى الأمام كان الجو هادئا والصمت يعم الأجواء إلى أن كسر ذلك الصمت صوت يقول «ماتت و هي مبتسمة، لم تفارق الابتسامة وجهها منذ الصباح حتى و هي على ساحة الإعدام، فبقيت مبتسمة حتى بعد موتها»

كان هذا صوت إحدى الشرطيات وهي تحادث زميلتها، كان كلامها صعقة ألم أصابت قلب زينب فوقعت أرضا على ركبتيها تجهش بالبكاء وتصرخ بأعلى صوتها، فاجتمعت حولها الحارسات لتفهمن ما الذي حدث، وبعد لحظات سمعت المديرة بخبر انهيار إحدى الحارسات بكاء بالقرب من ساحة الإعدام فعرفت أنها زينب و ركضت مسرعة إليها وحين وصلت أبعدت الجميع عنها وطلبت منهن

العودة إلى عملهن ورمت بنفسها على الأرض واحتضنت زينب والتي كانت لا تزال تبكي بحرقة وتشهق بألم، و ما إن احتضنتها المديرة حتى قالت بصوت خافت متعب «أين هي الآن» ردت عليها المديرة وهي لا تزال تحتضنها «أخذوها لإكمال إجراءات الدفن»،

ثم عدلت جلستها ووضعت يدها على خد زينب ومسحت دموعها وقالت« يهبنا القدر أحيانا شخصا منقذا لنحظى بفضله بحياة جديدة و أحيانا يكون الموت هو ذلك المنقذ وكانت ندى أكثر حكمة منك فهي أدركت ذلك وأنت لم تدركيه »

ردت زينب« أصبح اسمها أمل الآن وليس ندى » ثم وقفت ووقفت معها المديرة، مشت بضع خطوات فقالت المديرة « إلى أين أنت ذاهبة» ردت زينب دون أن تلتفت«إلى مكان لا ماض لي فيه لأكون سعيدة أينما كنت فأنا لا أستطيع أن أسعد في هذا المكان بعد اليوم وبهذا لن أكون قد حققت وصية أمل بأن أكون سعيدة من أجلها، كان آخر ما قالته لي "غادري "ولهذا سأغادر من هنا للأبد

المديرة« اذهبي إذا وابدئي من جديد و لا تسمحي لليأس بأن يتسلل يوما إلى أعماقك واصنعي من بدايتك الجديدة حكاية بفصول جميلة كلها أمل»

التفتت زينب إلى المديرة وقالت «حان الوقت لنضع عنوانا لآخر فصول حكايتها فاليوم اكتمل ذلك الفصل وأظن أن عنوان "نهاية الألم وبداية الأمل" يناسبه فألمها قد انتهى و رحلت تاركة إياه خلفها، رحلت لتستعيد اسمها أمل وتستعيد معه الأمل، سأذهب الآن كي لا يستنزف هذا المكان ما تبقى لروحي من طاقة فأنا بحاجة لها لأروي بها قصة أمل من جديد»

المديرة« و لكن ماذا عن قصص باقي الفتيات أو بالأحرى واقعهن القاسي والذي جعلته نوادي عقاب كذلك، فماذا عن تلك النوادي التي قتلت آمال الكثيرات، هل ستغادرين من دون محاولة لإنقاذ أحلامهن»

زينب:«فليكن، فأنا لست بمنقذة، فلو كنت كذلك لأنقذت ندى التي كانت بالأمس تبتسم لي واليوم تبتسم على ساحة الإعدام، سأغادر فالواقع ليس فلما تستطيع فيه فتاة لوحدها كشف خبايا منظمة كتلك، فتنقذ بذلك أرواح الكثيرات من أن تكون ضحية للألم»

غادرت زينب حاملة معها الألم والأمل في أعماقها، اتجهت إلى منزلها وجمعت أغراضها واتجهت بعدها إلى المطار، حجزت بأول طائرة إلى ألمانيا تذكرة ذهاب بلا عودة، وبعد ساعات ركبت الطائرة وهي تجهز جناحيها لتحلق بعيدا عن سماء ذلك البلد تاركة فيه ألمها وأرقها وآخذة معها آلام ندى وماضيها، أقلعت الطائرة فأطلت زينب من نافذتها تبتسم والدموع تلمع في عينيها وهي تودع كل ما تركته خلفها وداعا لا لقاء بعده، وصلت إلى ألمانيا واستقرت هناك وبعد خمسة أشهر من تواجدها هناك، وصلتها رسالة من رقم دولي في رقمها الذي تستعمله حين تكون بألمانيا، فتحتها لتجدها من مديرة السجن تقول

فيها «زينب، أتمنى أن تكوني بخير، لم نتحدث منذ وقت ولم أكن لأقاطع جلسة الابتعاد التي تعمدت القيام بها، لتتخلصي من طاقتك السلبية، لولا الحدث الإيجابي الذي أحمل لك أخباره لأرفع به معنوياتك، فاليوم وبفضل ندى أنقذت حياة الكثير من الفتيات كن على وشك أن يحظين بمصير قاس بسبب نوادي عقاب، فالمعلومات التي أخبرتك بها ندى قد ساعدت شرطة مكافحة المخذرات على كشف وتفكيك منظمة عقاب السرية وغلق نواديه فأنا قد قدمت تلك المعلومات بعد رحيلك لأحد العاملين الأوفياء في مجال مكافحة الممنوعات ليستغلها في تنفيذ واحدة من اكبر العمليات للقضاء على الفساد في المجتمع »

قرأت زينب الرسالة وظلت لوهلة شاردة ثم ردت على الرسالة« لابد أن أمل سعيدة بهذا ولابد أنها تقول لم تكن لحياتي معنى ولكن موتي كان له ذلك فموتها خلصني من الأرق و أنقذ الكثيرات من أن يحظين بمصير مؤلم كمصيرها، أشكرك على الرسالة وهنيئا لمجتمعكم بإنقاذكم له برفاة روح» وضعت زينب هاتفها جانبا، واستلقت في سريرها واحتضنت نفسها بغطائها لتهرب من ذاكرتها بالنوم وتسافر بذلك إلى عالم الأحلام قبل أن يدرك الألم أنها تتألم فيسرع ليتسلل إلى عيونها ثم إلى ذكرياتها، فالأرق حتى بانتهائه يعود لزيارتنا حين نتألم ليؤنس بذكريات أقسى ألمنا و يجعله أكبر، فهو يعيق الأحلام فيعيق بذلك الآمال ويصنع بذلك الآلام.